

مجلة البيان - العدد ٢٦ ، شعبان ١٤١٠ هـ / مارس ١٩٩٠ م

الافتتاحية

حوار الأقرباء أم البداء ؟

دعا مركز دراسات الوحدة العربية إلى ندوة في القاهرة ما بين ٢٥ - ٢٧ أيلول ١٩٨٩ تحت عنوان (الحوار القومي - الديني) وقد حضر هذه الندوة عدد غير قليل من الكتاب القوميين الذين يرون الصلة ما بين العروبة والإسلام ، أو بدعوا بالتكلم عن الإسلام ودوره الحضاري ، كما حضرها القوميون العلمانيون وبعض الإسلاميين والمشايخ ، وكانت الموضوعات تدور حول تطبيق الشريعة الإسلامية ، ومحاور الالقاء والتفاهم بين العروبيين والإسلاميين ، والأزمة التي تمر بها الأمة ودور المفكرين في هذه الظروف ، وقد نشرت مجلة المستقبل العربي بعضًا من الأوراق التي قدمت للندوة ، كما نشرت جريدة الشرق الأوسط اليومية ملخصاً ليوميات الندوة . ولنا على هذه الندوة الملاحظات التالية:

- ١ - إن فكرة الحوار والتواصل ، وسماع الأطراف من بعضها ، والتعرف على الفكر الآخر ، شيء جيد ولا غبار عليه بشرط أن يكون الرائد إلى ذلك هو التوصل إلى الحق وليس الترف الفكري . وجميل أن يتراجع الناصريون والقوميون ويعرفوا بتصورهم السابق في دراستهم للإسلام ، وأن التيار القومي عندما حكم أبعد الإسلام وبطش بدعاته ، ونرجو أن تتوضّح الصورة أكثر في المستقبل ويعرفوا بأن عبد الناصر أساء للعروبة والإسلام .
- ٢ - من الواضح أن كثيراً من شاركوا في هذه الندوة كانوا يطروحون حلولاً توفيقية وسطوية ما بين الإسلام والقومية العلمانية ، وكأن لسان حالهم يقول : قربوا خطوة ونقرب أخرى ، حتى نلتقي في منتصف الطريق ، فالأستاذ محمد فائق (وزير إعلام مصر سابق) ينتقد النظرة السلفية التي تريد إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء !!

والأستاذ فريد عبد الكريم يدعو إلى عدم إقحام الدين كل دائرة من دوائر نشاطنا . والدكتور عصام نعمان ركز على أنه لا عصمة للفقهاء (لم يقل بعصمتهم أحد من المسلمين) ولكنه يريد أن يقول: إن باب الاجتهاد مفتوح للجميع ، وبمثل هذا قال مسعود الشابي واتهم الإسلاميين بأنهم يحتكرون المرجعية الدينية . والدكتور محمد عمارة يجوز أن يتولى القضاء الإسلامي رجل غير مسلم لأنه منفذ للقانون فقط .

وقد طالب الدكتور رضوان السيد كل طرف بالتنازل : "فعلى القوميين التقديمين أن يسقطوا من أجل الحوار شرطهم العلماني الذي يفصل أمتنا عن تاريخها ، وعلى الإسلاميين أن يسقطوا من أجل الأمة شعار تطبيق الشريعة الذي يشرذمهم في الراهن ولا يجمع" (١) ودعا فهمي هويدى للالقاء حول موضوع الحرية وحقوق الإنسان والقضية الفلسطينية كقضايا متافق عليها الآن بين الطرفين .

هذا الطلب حول التنازلات يأتي من طرف القوميين رغم أن موقفهم ليس هو الأقوى ، وهم الذين طلبوا الحوار ودعوا إليه ومع ذلك فإنهم يشترطون على الطرف الآخر (الإسلاميين) أن يكون متوراً ويؤمن بالديمقراطية والتعدديّة ، أي أنهم يريدونه إسلامياً عصرانياً يتنازل لهم ويلتقي معهم في منتصف الطريق ، وإذا كانوا جادين في الحوار فلماذا لا يسمعون من الطرف الأقوى على الساحة ؟ وقد أحسن الدكتور رضوان السيد في الرد عليهم عندما قال : "إذا كنتم تقصدون لجوء بعض

الحركات الإسلامية إلى العنف ، فإن الماركسين الجدد هم أول من دعا إلى الحرب الشعبية الداخلية ، ولم تتهموهم بالظلمانية وعدم الاستئثارة" (٢).

٣ - إن شعارهم الذي رفعوه هو (الحوار القومي-الديني) ولم يقولوا (القومي-الإسلامي) وهذا مقصود طبعاً لأن الدينى تعنى أي دين ، وفيه أيضاً تحجيم للإسلام على أنه (نحلة) أو مذهب يستقاد منه روحياً واجتماعياً ، والكل يعلم أن الإسلام دين شامل مهيم ، مكون للأمة من جميع جوانبها.

٤ - إن ملاحظاتنا هذه لا تعنى السلبية أو النقد ، فبعض المشاركين تكلموا كلاماً جيداً - وإن من وجهة نظرهم - ولكن يتصف بالرزانة والتعقل ، وإذا كانوا سيساعدون فعلًا في إزالة القدر المفروض على المسلمين فهذا شيء طيب ، ونريد منهم التدليل على هذا لأن الإسلاميين ذاقوا من الاتجاه القومي الوليارات ، وكلام فهمي هو يدلي أن الإسلاميين وقعوا في أسر الماضي ، وإن كان فيه شيء من الصحة ولكن هل يريد منهم نسيان هذا والمؤمن لا يلangu من جحر واحد مرتين؟ .

٥ - بعد فترة من انتهاء هذه الندوة سُئل أحد الدعاة الإسلاميين عن رأيه في الحوار مع العلمانيين ، فرحب بهذا كثيراً ، بل دعا إلى الحوار مع الكل ، مع المستشرقين والفاتيكان... وليس هذا مجال التعليق على جدوى أو أهمية مثل هذه الحوارات ، ولكن ليس من الأجدى والأولى الدعوة إلى الحوار مع الفصائل الإسلامية ودعوتهم إلى التعاون والتقارب والتنسيق ، وإذا كنا غير متحفظين على أي حوار نافع فأصحاب المنهج الواحد أولى بالمعرفة.

الهوامش :

١ - مجلة المستقبل العربي ، العدد ١٣٠ ، الصادر في شهر ١٩٨٩/١٢ .

٢ - المستقبل العربي / ١٣٠ .

مصطلحات إسلامية

التوبة

إعداد: عادل التل
المعنى اللغوي :

الباء والواو والباء في أصل اللغة ، كلمة واحدة ، تدل على الرجوع. قال في اللسان : التوبة : الرجوع عن الذنب، والتوب مثله. قال ابن منظور: أصل تاب عاد إلى الله ورجع. ومعنى تاب الله عليه : أي عاد عليه بالمغفرة.

التوب بالنسبة لله تعالى تعنى: كثرة قبوله توبة العبد حال بعد حال، أما بالنسبة للعبد: العبد الكبير التوبة ، ومن الألفاظ التي تشارك هذا اللفظ بالمعنى : ثاب ، وأناب ، وأب.

المعنى الاصطلاحي :

يجتمع الاستغفار والتوبة في كثير من الدعاء، وطلب المغفرة يعني طلب الستر، ففي اجتماع ذلك مع التوبة يكون المعنى متكاملاً لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- يكثر من الدعاء: « والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » رواه البخاري.

شرائط التوبة :

- ١ - ترك الذنب لقبه: أي بالإفلات عن المعصية سواء كانت من الكبائر أو من الصغائر، والأصل أن يكون ترك الذنب قد جرى بإرادة حرة وإن لم تعتبر توبة إذا كانت بطريق الاله أو العجز.
- ٢ - الندم على ما فرط به هو أن يندم المذنب على فعلته التي تركها ويشعر بالحزن والأسف كلما ذكرها وهو مهتم بذلك لشعوره بعظم الذنب وقبحه وإدراكه مبلغ التغريب الذي صدر منه.
- ٣ - العزيمة على ترك المعاودة: وهي النية التي تنشأ في قلب التائب تتحقق صدقه بالتوبة وهي بمثابة العهد الذي يقطعه بعدم الرجوع إلى الذنب وتحول الإرادة من المعصية إلى الطاعة.
- ٤ - تدارك ما أمكنه من الأعمال: إذا كانت التوبة من معصية كانت بين العبد وربه ، فإن كانت متعلقة بتقصير في صيام أو زكاة أو غير ذلك، فلا بد من تأدية العمل موضوع التقصير حسب المطلوب شرعاً . وأما إذا كان الذنب متعلق بحق الناس، فلا بد من التحلل منهم وطلب الصفح أو إرجاع الحق إلى أصحابه إذا كان مادياً . وتكون التوبة تامة إذا تحقق معها الاتجاه نحو الطاعة والعمل الصالح، قال تعالى :((وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا)).

موضوع التوبة:

تشمل التوبة جميع الذنوب الصغيرة والكبيرة ، وقد روى أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغرتني، غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقرب الأرض خطايا ثم لقيتني لا شرك بي شيئاً لأنني أتيتك بقربها مغفرة ». صحيح رواه الترمذى.

ولابد من التساؤل إلى متى تصح التوبة ؟ قال تعالى: ((إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا ، وَلَيُسَتَّ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي ثَبَتَتْ إِلَيَّ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمْوُلُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْذَنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)) [النساء: ١٧-١٨].

روى ابن ماجه والترمذى بإسناد حسن قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:» إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرر ».

أما الجهة فقد روى ابن حجر عن قتادة عن أبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهله. وقال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله تعالى خطأ أو عمداً فهو جاحد حتى ينزع عن الذنب. وقال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُذْلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)) ذكر القرطبي في التفسير أقوالاً للعلماء في معنى التوبة النصوح :

- ١ - هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود البن إلى الضرع ، وروي عن ابن مسعود بسند صحيح (كما ذكر ابن حجر) مثل ذلك. وعن عمر وأبي معاذ أيضاً.
- ٢ - قال قتادة النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل الخالصة ، يقال : نصح أي أخلص له القول.
- ٣ - قال الحسن : النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر إذا ذكره.

من أحكام المصطلح :

إن الإسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين ولا يطردهم من الجماعة إن أرادوا أن يعودوا إليه متظاهرين ، بل يفسح المجال لهم ويبين لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه ، فلا حرمان من رحمة الله

لمن لجأ إليه ، وذلك كما يفعل أصحاب الديانات الأخرى حيث يقوم رجال الدين بطرد بعض الأفراد من الرحمة.

والتنورة واجبة على الفور ولا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة ، والتنورة من مهمات الإسلام وقواعد المتأكدة.

يقول تعالى ذكره : ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) وقال أيضاً : ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربِّي لا إِلَهَ إِلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهديك ووعديك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنب إلا أنت » رواه البخاري وابن ماجه والنسائي .

مشاهدات في أوربا مدرسة طارق بن زياد

محمد سليمان

عندما وصلنا إلى مدينة (هلموند) في هولندا ، والتي تبعد عن العاصمة أمستردام حوالي (١٣٠ كم) ، كان القائمون على المسجد يرددون كثيراً (المدرسة الإسلامية) ، فسألتهم عن هذه المدرسة ، فقالوا: الأفضل أن تراها وهي قريبة في مدينة مجاورة اسمها (إندهوفن) ، وفي اليوم التالي اتجهنا إلى المدرسة التي أطلقوا عليها اسم (طارق بن زياد) ، وهي مدرسة ابتدائية متكاملة بفصولها ومرافقها قدمتها الدولة للجالية الإسلامية في هذه المدينة.

تجولنا في فصولها ومرافقها ، وكان كل شيء يوحى بأنها إسلامية ، ثم كان هذا الحوار مع أخرين من الجالية العربية المغربية وهما من الأعضاء الخمسة المشرفين على المدرسة:

كيف بدأت قصة المدرسة؟

- كنا نعاني كثيراً من خطر ضياع الأطفال في المجتمع الغربي ، فأسسنا مسجداً للصلة بالاشتراك مع الإخوة الآتراك ، وببدأنا بتعليم الأطفال القرآن الكريم في هذا المسجد في عطلة نهاية الأسبوع ، ثم ضاق المسجد بنا فانتقلنا إلى مكان أوسع وفكرنا في زيادة حرص اللغة العربية ، وكنا نعاني من عدم وجود مدرسین مؤهلین ، وفي عام ١٩٨٦ تفاقمت مشاكل الاختلاط في المدارس ، وكنا نذهب كمندوبين عن الجالية نناقش هذه المشاكل مع إدارة المدرسة ، ثم تكلمنا مع البلدية حول خصوصية المسلمين وثقافتهم ، فقالوا: هذا قانوننا ، وإذا كنت تريدون غير هذا فابحثوا عن مدرسة خاصة بكم ، وقال أحد الموظفين في البلدية : عندي القانون الذي يسمح لكم بمدرسة خاصة بكم ، من هنا بدأت الفكرة ، ذهبنا إلى البلدية نبحث معهم الموضوع ، وطلبنا من بعض الهولنديين مساعدتنا فقالوا: إذا كنتم تستطيعون صعود الجدار فابدعوا ، ولكننا لم ن Yas .

كم من الوقت استمر هذا البحث؟

حوالي ثمانية أشهر ، في ٢١/٣/٨٧ دفعنا الطلب إلى البلدية ، وبعد شهر وجدنا تجاوباً وسجينا أنفسنا كجمعية ، وقدمنا لهم قائمة بأسماء الأطفال الذين يرغب الآباء في تدريسهم في مدرسة إسلامية ، وافق المجلس البلدي بعد مناقشات حادة فيما بينهم ، ثم وافقت المحافظة والوزارة بعد ضمان من مؤسسات تعليمية .

- هل يعني هذا أن الوزارة وافقت على تقديم البناء وكل تكاليف المدرسة ورواتب المدرسين والموظفين؟

- نعم ، ولكن نحن ندفع تكاليف النشاط فقط.

- متى افتتحت المدرسة؟

- في ٨٨/٨/١٤ وكان عدد الأطفال الذين سجلوا (١٦٠) طفلاً تتراوح أعمارهم ما بين (٤-٨) سنوات ولكن الذين حضروا فعلاً كانوا (٤٥) ثم زاد العدد بعد شهر إلى (١٠٤) والمدرسة الآن تحوي فصلين حضانة وثلاثة سنوات ابتدائي.

- من المشرف الفعلي على المدرسة؟

لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء كلهم مسلمون ومن جنسيات مختلفة ، وهم الذين يشرفون على المناهج.

- كم عدد المدرسين المسلمين؟

- عندنا ثلاثة مدرسين للدين واللغة ، ومدرسة هولندية مسلمة.

- و البقية؟

- المدير هولندي وهو متحاوب معنا تماماً لأنه جاء حسب الشروط التي أعلنا عنها ، وبقية المدرسين هولنديون أيضاً.

- هل تمحض بعض الفقرات من المناهج التي تخالف الإسلام؟

- نعم ، مثل كتاب القراءة ، هناك صفحات عن أعياد النصارى اتفقنا مع المدير على حذفها.

- دروس الموسيقى؟

ليس هناك درس موسيقى ، وعوضنا عن هذا بتعليمهم الأناشيد ، ويتعلمون التجويد طبعاً ، وعندما جاء المفتش سمع من الطلاب وهم يقرءون فأعجبه ذلك.

- هل هذه أول مدرسة من نوعها في هولندا ، أعني مدرسة حكومية إسلامية؟

نعم ، وقد فتحت بعدها مدرسة في أمستردام تشرف عليها الجالية المصرية ، ومدرسة في روتردام تشرف عليها الجالية التركية، ونتوقع في هذه السنة أن يصل عدد المدارس الإسلامية إلى سبع عشرة مدرسة.

- هل تخططون لتأهيل مدرسين؟

بعد إنشاء هذه المدارس ، بدأ بعض الشباب بالتوجه نحو التأهيل التعليمي، ولكن في أمستردام هناك كواذر من الإخوة الأتراك متخصصون في التدريس.

- هل تجدون مضائقات من الشعب الهولندي؟

في البداية ، حصلت مضائقات ، أحرقوا المكتب وهددوا بالهاتف والرسائل.

- هل هو حزب عنصري؟

نعم ، ولكنهم لا يصرحون بهذا ، والآن استقرت الأمور وليس هناك مشاكل.

شكرت الأخوة في (إندوفن) و (هلموند) على هذا اللقاء وهذا التعرف على المدارس الإسلامية ، والتي تشكل إحدى الحاجات الرئيسية للجالية الإسلامية في أوربا، وأظن أن الدعم الذي يلقاه المسلمون في هولندا لتأسيس مدارس إسلامية لا يوجد مثيل له في باقي دول أوربا.

إن إبعاد التأثير الغربي عن أطفال المسلمين من أهم ما يجب العناية به ، وهو هدف من أهداف المنتدى الإسلامي ، كما أن موضوع التعليم بشكل عام هدف من أهداف مجلة البيان.

في التربية والعمل وقفة مع الدعاة

عبداللطيف الوابل

إن المتأمل في حال الأمة الإسلامية اليوم وما وصلت إليه من فرض نفسها على الواقع حتى أصبحت ترى أفواجاً من الشباب يلتزمون في دين الله سراغاً في قوة وحماسة وعزم؛ يجد في نفسه أملاً قوياً ويحس في صدره بفرحة غامرة، وحين يمد خطوة قليلاً فيدخل في خضم هذه الأمواج المباركة يقف متلماً حزيناً إذ يرى الأمراض الصغيرة الخطرة تصيب بعض هذه الأفواج الموعودة بنصر دين الله، هي صغيرة ويمكن تلافيها حين يتيقظ لها ذنو الألباب وهي خطرة لأنها سر عان ما تنشر في صفوف الدعاة كانتشار النار في الهشيم فتهدم هذا البنيان المبارك وتهلكه، ويذكر المرء قول الشاعر:

أرى خلل الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام

ولما كان الخل في ضبط الكلام وعدم الالتزام بمنهج الإسلام في استقامة اللسان من أهم أسباب هدم صفاء الأخوة ونقاء المحبة، بل من أهم أسباب تقويض البنيان وضياع الجهود وتفرق الكلمة أحبت أن أذكر هذه الأفواج المباركة ببعض معالم هذا المنهج وذكر بعض الأمثلة مما يحصل في صفوف الدعاة ثم أبين ما يحصل من جراء الانحراف عن الالتزام بهذه المعالم الواضحة، مع يقيني بأن كثيراً منها قد لا يخفي على أغلب طلبة العلم والدعاة ولكن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يلزم المرء بنصح إخوانه وتذكيرهم براءة للذمة وحرصاً على جمع القلوب ووحدة الكلمة. وقبل البدء في الحديث عن هذه الأمور أحب أن أنقل كلمة للأستاذ سيد قطب رحمة الله حين تطرق لظلل قول الله سبحانه ((وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا التِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِإِنْسَانٍ عَدُواً مُبِينًا)) يقول رحمة الله: " فالشيطان ينزع بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفتت ، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء.. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلب وتتدلي جفافها ، وتجمعها على الود الكريم ".

أولاً: منهج الإسلام في استقامة اللسان :

١ - اختيار أحسن اللفظ وأجمله حين الكلام سواء كان ذلك في محاضرة أو موعدة أو نقاش علمي أو نقد بناء أو نصيحة صادقة أو غير ذلك لأن في ذلك كله أماناً من نزغات الشيطان وتسويله.

٢ - الإمساك عن الكلام إلا لمصلحة راجحة والتحرز الشديد من الكلمة وحصرها في نطاق ضيق ، يقول الإمام النووي رحمة الله : اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه ، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام ، أو مكروه ، وذلك كثير في العادة ، والسلامة لا يعدلها شيء . وكم كلمة أشعلت حرباً وأوقدت عداوة الدهر بكماله!!!

٣ - وزن الكلام وضبطه والتأمل فيه وفي عواقبه قبل إخراجه وعدم التسرع فالكلمة إذا خرجت لم تعد .

- ٤ - القول بالعدل والصدق وإن كان ذلك على أقرب قريب سواء كان ذلك مختصاً بالأفراد أو الجماعات أو المؤسسات الإسلامية ، والحزن كل الحزن من مسيرة الحماس والعواطف الجياشة وخاصة في المحافل العامة وعلى منابر النصح والإرشاد.
- ٥ - البعد عن تحريف الكلام وليه والمغالطة فيه وأن يكون كلامه لإخوانه واضحاً صريحاً غير محتمل للتأويلات للشحنة والبغضاء والتذابر وانعدام الثقة.
- ٦ - الالتزام بالقول وتصديقه بالفعل وعدم الفصل بينهما.
- ٧- ترك الجدل والمراء وكل صنف من أصناف الكلام المؤدية إلى فساد القلوب وشحنة الصدور من لمز أو همز أو غمز مع اللين في القول لإخوانه المؤمنين وترك الغلظة والفحش .
- ٨- محاسبة النفس على كل كلمة خرجت والنظر في عاقبتها والخشية من الله سبحانه حين السؤال وزنها بميزان الله أهي مما يرضي الله أم مما يسخطه ، فإن كانت الثانية أتبع السيئة بالحسنات.
- ٩- التحليل بلباس النقوى في كل حال من أحوال الكلام فإن الله هو المطلع وهو الذي سيحاسب ، كيف وقد قال سبحانه: ((يَوْمَ تَشَهُّدُ عَلَيْهِمْ أَسْنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))
- ثانياً: بعض الأمثلة الناتجة عن عدم الالتزام بهذه المعالم :**
- قبل البدء في ذكر هذه الأمثلة أود أن أنبئك أن ذكري لها ليس من باب الشماتة؛ وإنما من باب بيان عيوبنا حتى نصلحها ونتناصر بيننا حتى يستقيم البناء ولأجل أن يتتبه لها المربيون المصلحون فيحفظون بتجنبها هذا البناء الشامخ ويسدون الباب على أعداء الإسلام من المنافقين ومن يتربصون بهم الدوائر ويسعون في إشعال نار الفتنة بين أفرادحركات الإسلامية الملزمة بمنهج السلف الصالح.

١- أصبحت أعراض كثير من الدعاة لحماً طرياً يؤكل بالليل والنهار فالغيبة تعمل خنجرها في لحوم الدعاة إلى الله وبالسنة من؟ إنها السنة إخوانهم وأحبابهم وصدق من قال:

وظلم ذوي القربي أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فترى طالب العلم يدرس في نهاره؛ بل ويدرك الناس بتحريم الغيبة ويتنلو عليهم قول الحق سبحانه: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَنَاحُوا كَثِيرًا مِّنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَهُنَا لَا يَعْتَبِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحُبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرْهُتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَابُ رَّحِيمٌ)) ثم يجلس مع صاحبه في المساء الساعات الطويلة لا على صحيح البخاري أو صحيح مسلم أو أمر بهم شأن المسلمين بل على ذكر فلان الداعية ، وماذا له وماذا عليه ، وهكذا حتى يجر الحديث ببعضه بعضاً فلا ينتهي مجلسهم إلا وقد قاموا عن مثل حيفة حمار ، ضيعوا أوقاتهم وتحملوا أوزار غيرهم وهتكوا أعراض إخوانهم ، ولو كان هذا الحديث لمصلحة شرعية راجحة لكان الأمر يسيراً ، لكنه أصبح كالفاكهه يتتكه بها. فain أولئك من قوله سبحانه: ((مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدِيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)) ومن قول الرسول - صلى الله عليه وسلم- : «وَهُلْ يَكْبُرُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ عَلَى مَنَّا هُمْ - إِلَّا حَسَادُ أَسْنَتُهُمْ».

٢ - الرجم والتخرص دون تبين أو تمحيص ومعرفة ، فتسمع أحياناً في مجتمع الدعاة ألفاظاً عجيبة قد لا تسمعها من عوام الناس فترى بعضهم يصف بعضاً "لأنه لم يوافق هواه أو ليس على شاكلته" بأنه عميل وذاك جاهم ، وهذه المؤسسة مشبوهة ، وتلك مجلة فيها كيت وكيت ، وهكذا تتواتي الألقاب والأوصاف ، والله قد خاطب المؤمنين بقوله: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصَبِّيُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)) وفي الحديث: «إِيَاكُمْ وَالظُّنُنُ أَكْذَبُ

ال الحديث « ، ويقول صلى الله عليه وسلم - في حديث أبي هريرة : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان ، الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » ويقول الحسن البصري رحمه الله : « ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه » .

٣- بخس الناس أشياءهم وترك العدل في القول فتسأل فلاناً الداعية عن كتاب معين أو مركز إسلامي أو مجلة أو عن داعية آخر أو غير ذلك فيحدثك ويجيبك حسب هواه ورغبته فإن كان السؤال عن أمر موافق لهواه رفعه فوق السماء وإلا قال له الشتم والمذمة ، وأقل أحواله أن يطلب منك غض الطرف عنه وعدم الالتفات إليه فأين المسكين من قول الله سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلْوَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ) و قوله : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلْوَ كَانَ ذَا قُرْبَى) و قوله : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدُلُوا هُوَ أَفْرَبُ لِلتَّقْوَى) و حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحه يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزررو عليهم فأرادوا أن يرسوه ليرفق بهم فقال : " والله لقد جئتم من عند أحب الخلق إلى ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على إلا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض " .

٤- مخالفه العمل للقول ... فترى مجموعة من الدعاة يتلقون على أمر بينهم لمصلحة الدعاوة ومن باب .. التعاون على البر والتقوى وما إن يتفرقوا إلا وقد خالف العمل القول وامتثل كل منهم المثل السادس : (كلام الليل يمحوه النهار) بل إنك تسمع أحياناً داعية يذكر الناس في محاضرة أو موعظة أو مجلس فينتقد حالة مرضية في مجتمع الدعاوة وسرعان ما تراه يقع فيما نهى عنه قبل أن ينهي محاضرته وكأن الأمر أصبح مألوفاً ومعتاداً ، والله قد مقت من هذا وصفه بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَشْفُلُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَفْتَأِ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَشْفُلُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) . و أمر بالوفاء بالعهود والمواثيق فقال : ((وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا)) وقال : ((وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اللَّهَ مَسْتُولٌ)).

٥- الوقوع في النمية والتخصص في إفساد القلوب عن طريق اللسان الذي خلقه الله لذكره وتلاوة كتابه ، فترى أقواماً قد تخصصوا في الإيقاع بين الدعاة وطمس معالم الود والصفاء ، وما علموا أنه لا يدخل الجنة نمام وأن شر الناس من يسعى بينهم بالنمية ، فليتذكرة أولئك قول الله سبحانه : (يَوْمَ تَشَهَّدُ عَلَيْهِمْ أَسْنَنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، يَوْمَئِذٍ يُوَفَّيهُمُ اللَّهُ بِيَنَّهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)).

٦- عدم الاتزان في القول والتردد بين الإفراط والتفريط في يوماً يذكر فلاناً الداعية فيرفعه فوق منزلته التي هو فيها حتى كأنك ترى صحابياً من خيرة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وحين يتغير الهوى وتزول المصالح ترى ذاك الذي كان في الأفق قد نزل إلى الحضيض ، وهذا كله نتيجة الشطط والبعد عن الحق وميزان العدل.

٧- تفسير النصيحة على غير وجهها وتقديم الظن السيئ على حسن النية مما تسبب في انعدام النصح وتركه بين الدعاة إلى الله . فحين يأتي الناصح ليقول حقاً يتبادر لذهن المنصوح أولاً الظن السيئ ، والتفسير المغلوط ، فلا يقبل النصح بل ربما قال له أنا أعرف بحالك ! وكأن المسكين معصوم عن الخطأ والزلل.

ولا نشك بأن الدعاء إلى الله سبحانه بشر وأنهم يخطئون ويذنبون ، لكن حين تصبح بعض هذه الأمثلة ظواهر تراها بالليل والنهار ، هنا يحتاج الأمر إلى لفت الأنظار وشد الانتباه لمعالجة هذه الظواهر المرضية ، والكيس من دان نفسه وحاسبها ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

ثالثاً : عواقب البعد عن معلم منهج الإسلام في ضبط اللسان :

١ - التباعد والتباغض بين الدعاء إلى الله وعدم استفادة بعضهم من بعض وخاصة إذا كانوا من مدارس مختلفة.

٢ - انعدام الثقة في صفوف الدعاة مما تسبب في حيرة كثير من الشباب لأنه لم يعد يعرف الصادق من غيره فذاك يثنى على فلان ، وذاك يرد ، ومن هنا كثرة المدارس وتعدّت الطرق وتباعدت القلوب.

٣ - انعدام البركة وتأخير الثمرة وهذا نتيجة عدم الالتزام الصادق بأمر الله ومنهجه. فكم ترى من الدعاة وكم تبذل من جهود فإذا بحثت عن الثمرة وجدتها لا تتناسب مع هذه الجهود؛ بل والمصيبة أنك ترى أحياناً ثمرات لكنها تقطف بأيدي الأعداء وصدق الله إذ يقول: ((وَلَا تَنَازَّ عُوْا فَتَفَشِّلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ)).

٤ - كثرة قالة السوء في صفوف الدعاة لأن الذي لا يحمي بيته ويحفظه يصبح مرتعاً للصوص حتى لا تكاد تميز بين اللص وصاحب الدار وهكذا نرى اليوم في صفوف الدعاة أنواعاً من المنافقين وقالة السوء ، يظن من لا فطنة له أنهم من رواد هذه الصحة المباركة.

ولهذا أصبح ستار الدعوة سهل الاختراق من كثير من أعداء الإسلام.

٥ - غياب النقد والمراجعة والتناصح لأنه قد اختلطت المفاهيم فلم يعد يفرق الداعية بين النقد البناء والنصح الصادق وبين السب والشتم والتخرص وهكذا تضيع الجهود والتجارب دون استفادة من الدروس وأخذ العبر وتصحيح المسار.

٦ - ضعف التخطيط وضياع الجهد على المستوى العام للدعوة وانعدام عنصر التعاون الشامل بينحركات الإسلامية ولو على أقل الأمور في الخطوط العامة ، فذاك يبني وأخوه يهدم ما بني وهذا يتعامل مع إخوانه بأسلوب سياسة الشرق والغرب ، فكيف يحصل التخطيط الشامل والتعاون والتنسيق وبأي حال يمكن أن تصب جهود الدعاة كلها في مصب واحد؟

٧ - قسوة القلوب وصدؤها وبلادة الحس وعدم الشعور بالإثم فأصبحت ترى أقواماً اعتادوا على الانحراف عن هذه المعلم فلا يؤثر فيهم نصيحة ولا يمنعهم تخويف بالله ، فإن نصحت لا تجد إلا قبولاً بارداً وعاطفة سريعة الانطفاء وعزيمة كاذبة على ترك هذا الخلق الذميم سرعان ما تنتهي ويردها قلبها القاسي.

فإليك أخي الداعية أسوق هذه التذكرة وتلك الالتفاتة لعلها تصادف قلباً قد آلمه ما يرى من حال الدعاة فلتتمكن فيه النصيحة ويتذكر ما نسي ، ويحملها لغيره نصائح الله وفي ذات الله فإن المرجع هو إلى الله وحده والسؤال سيكون في القبر لك وحدك حين الظلمة والوحشة ، فاتق الله واخش يوماً تنقلب فيه القلوب والأبصار.

بين الشيوخ والشباب

محمد العبدة

لا أعتقد أن التشدد أو التساهل كلمتان مناسبتان لوصف داعية إسلامي أو اتجاه إسلامي ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم- غضب غضباً شديداً عندما رأى معاذًا رضي الله عنه يطيل في القراءة في الصلاة وهو إمام وقال له : أفتان أنت يا معاذ؟ فالمتشدد ، يوحى للناس بشكل غير مباشر أن هذا هو الإسلام ، وقد يصرف بعض الناس عن الخير ، والمتشدد كأنه يتمنى في داخله لو أن الإسلام أمر بهذا أو شدد في هذا ، وهو في هذه الحال يضيق على نفسه وعلى المسلمين ، ويحاول أن يفهم النصوص فهماً خاصاً ، وقل مثل ذلك في المترخص أو أكثر فهو يحاول التهرب من النصوص أو الالتفاف عليها ، ويقترب من الناس ويشعرهم أن الإسلام ليس بالذي يتصورونه ، ويضغط عليه أقوام يريدون (فتاوي) جاهزة تتناسب بهم ، فإذا استجاب يطلبون منه أكثر ، ودين الله بين الغالي والجافي ، وأظن أن المسلم يعرف هذا من نفسه إذا رأقها ، وبحث في داخلها ، هل يميل إلى التشدد لشهوة في نفسه أم لا؟ وكلا الطرفين فيه شهوة خفية.

وفي الأسبوع الذي التقى فيه بهؤلاء الشباب قرأت مقابلة في إحدى الصحف لأحد الشيوخ الدعاة ، تكلم فيها عن المرأة وصب جام غضبه على الإسلاميين الذين يخنقون أنفاسها ، ولا ييرزونها لتكون قائدة من قواد العمل الإسلامي ، ويقول : "ورغم أن المرأة ذهبت للجامعة وخرجت للعمل والسوق ، ولكنها لا تزال محرومة من الصلاة في المساجد (يقصد الصلوات الخمس)". نحن لا نقلل من أهمية فهم المرأة للإسلام ودورها في ذلك، ولكن لماذا يستدرج الدعاة دائمًا للكلام عن المرأة وكأنها هي المشكلة الرئيسية ، فإذا حلت هذه المشكلة حلت كل المشاكل ، وهذا ديدن الصحفيين ، يريدون (الفتاوى) التي تعجبهم لينشروها بين الناس ، وفي تلك المقابلة قال الشيخ : "إن الديمقراطية المعاصرة هي الشورى الإسلامية" هكذا وبكل بساطة وسهولة. مع أن الخلاف بينهما كبير (وليس هذا مجال تفصيله) ولكنه لو قال: إن الإسلام يكره الاستبداد؛ والديمقراطية - على ما فيها من خلل كبير وهذا يعترف به الغربيون - هي أفضل من النظم الدكتاتورية لكان كلامه صحيحًا. أما أن تكون الديمقراطية التي تمارس الآن هي الشورى الإسلامية أو صنواً لها فهذا تساهل ، والفتوى أمانة بر قاب العلماء ، والصراط المستقيم الأعدل هو المطلوب.

قاعدة لاستمرار عملية الاجتهد

د. عبد السفياني

لا عجب أن تتشكل خيوط الإعجاز التشريعي، والإعجاز الكوني ، فالله هو صاحب الخلق والأمر ، وإن من أبرز ملامح هذه المشاكلة ما يلي:

١- الكون خلقه الله وقدر فيه طاقاته، فبقدر ما يتعامل الإنسان معها بقدر ما يستخرج منها ، فالماء طاقة مقدرة في الأرض فإذا استخرجها الإنسان فإنما استخرج طاقة كامنة يسر الله لها استخراجها ولكنها ليست خلقاً جديداً مستأنفاً في الأرض(فُلَّ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنَّدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمَيْنَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّاً مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ)) [فصلت: ٩ - ١٠].

وفي هذه الآية دلالة على أن الله جعل في هذه الأرض جميع ما تحتاجه البشرية من الطاقات ، وكل جيل يستخرج منها ما يطيق حسب قدراته ونشاطه ومبلغه من العلم ، وكذلك هذه الشريعة ، جاءت نصوص الوحي بها متضمنة معانٍ لا حصر لها، فقد جعلها الله شاملة لما يشاء أن يعلمه للبشر في جميع أجياله ، وكل جيل يعلم منها ما يحتاج إليه في جميع شؤونه، فيستخرج منها جائراً يحكم حياته كلها، فيحفظ له هذا المنهج عقيدة صحيحة - فيسلم من التخلف العقدي وهو الارتكاس إلى الجاهلية البشرية - ويحفظ حياته الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية فتحقق حينئذ العبادة في هذه الأرض وهي المهمة التي خلق الله الإنسان من أجلها.

يأتي كل جيل ليرتبط بهذه الشريعة ، ويجد علماؤه فيها كل ما يحتاجه في تلك الأمور - وليس شيئاً من ذلك قد أنزل إنزالاً جيداً مستأنفاً ، كلا ، وإنما هو متضمن في هذه الشريعة ، تماماً كما هو الشأن في هذا الكون فيقف كل جيل ليجد ما يحتاجه من الطاقات في هذا الكون مدخراً له ، ويجد المنهج الصحيح الذي يحكم له جزئيات حياته مدخراً له في هذه الشريعة فيعلم أن له رباً خلق له كوناً يعيش فيه ليستخرج طاقاته ، وإلهاً أنزل له شريعة ليستخرج منها ما يبصره بالمنهج الصحيح ، وهذه أول ملامح تلك المشكلة بين الإعجاز الكوني والإعجاز التشريعي.

٢- إن هذا الكون لا تضاد فيه ولا تناقض بل هو صنعة حكمة مبدعة وهذا هو الإعجاز الذي يقابله إعجاز تشريعي حيث أنزل الله شريعته لا تضاد فيها ولا تناقض ولا اضطراب ، بل هي قول حكم. وملامح هذه المشكلة تظهر في مثل قوله تعالى عن بيان امتناع هذا الكون عن الفساد والاضطراب: ((لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)) [الأنبياء: ٢٢].

نعم لو كان في السماء والأرض آلة إلا الله لاقتضى ذلك أن تتعدد الإرادات في تدبير هذا الكون ، فهذا يسيير القمر إلى جهة ، وأخر يأمره بتصدّها ، وهذا يريد الشمس جارية ، وذاك يريد لها ساكنة ، وحينئذ يقع الفساد ، فلا يمكن أن تتعدد الآلهة- وكل إله يستحق الألوهية- كلا لو كان كذلك لفسدت السموات والأرض.

وشريعة الله التي هي كلامه المعجز ووحيه إلى نبيه لا يمكن أن تتعارض ولذلك قال تعالى: ((لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا)) [النساء: ٨٢].

نعم لو كان القرآن من عند غير الله لوجدنا فيه ذلك الاختلاف ، فلما لم نجد قطعنا حينئذ أنه من عند الله ، مثل سلامـةـ الكـونـ منـ الفـسـادـ دـلـنـاـ ذـلـكـ عـلـىـ أـنـهـ مـنـ خـلـقـ اللهـ ،ـ وـهـذـاـ وـذـاكـ هـوـ سـنـدـ الثـبـاتـ فـيـ هـذـاـ الكـونـ وـفـيـ هـذـهـ الشـرـيـعـةـ إـلـىـ أـنـ تـقـومـ السـاعـةـ فـيـقـدـرـ اللهـ حـيـنـئـذـ مـاـ يـشـاءـ ،ـ وـالـثـبـاتـ هـوـ مـنـ أـهـمـ مـعـالـمـ الإـعـجازـ التـشـريـعـيـ وـالـإـعـجازـ الكـونـيـ.

٣- من مظاهر الإعجاز في الكون أنك تجده متعددًا معطاء بفضل من الله ، والإنسان يستثمر ذلك العطاء ، وكلما اتجه الإنسان إلى الاستثمار الصحيح وجد خيراً كثيراً بإذن الله ، وفي هذا الكون طاقات كافية ثابتة يستخرج منها الإنسان - عن طريق الاستثمار الصحيح - طاقات جزئية لا حصر لها ، ولذلك يختلف البشر في إمكان - الحصول على ذلك ما بين مستكثر ومستقل ، وقد حمل الله الإنسان هذا الجهد ليكابد الحياة ويعمل ويعلم الأرض فتحقق العبادة بإقامة الخلافة فيها.

والإنسان في كل ذلك ليس خالقاً ولا منشأً حتى وإن اكتشف ، لأن أصل الخلقة الله سواء في الكون أو الإنسان ، وجهد الإنسان إنما هو اكتشاف لما يسره الله له حسب السنن الربانية.

وكذلك هذه الشريعة - التي هي وحي من الله - جعلها سبحانه متضمنة لكليات تشريعية تحفها جزئيات شرعية كذلك ، ثم كلف الأمة المتابعة لهذه الشريعة أن تجده جهدها في إقامة فرض الكفاية وهو التعلم ، وتهيئة طائفة منها لتقوم بمهمة التعليم والاجتهد بذلك كله فرض كفاية ، وعلى الأمة العمل لإقامته ، وهؤلاء المجتهدون يستثمرون تلك الكليات التشريعية ، وقد علموا منها ومن تلك الجزئيات كيف يتم الاستثمار وتحقيق مقاصد الشريعة ، وحينئذ يتحقق لكل جيل عن طريق - المجتهدين - الحكم في مسائل لا يمكن حصرها بالبنته ، وهذا هو غاية الاستثمار للكليات التشريعية (١) ، وهذا الاستثمار اكتشاف لحكم الله ، وليس إنشاء ولا تشريعًا تماماً كما تبين لنا في الإعجاز الكوني ، ذلك أن الله وحده هو الخالق والشرع والامر سبحانه لا إله إلا هو.

٤ - من مظاهر الإعجاز الكوني أنك تجد شجرة واحدة - وهي آية من آيات الله تتفرع عن أصلها فروع كثيرة جداً ، وتجد أيضاً أنواعاً كثيرة من المخلوقات كالهواء والبذر والتربة.. - تجتمع لتخرج - بإذن الله - الزرع بجميع أجناسه ، الذي يصلح لسد كثير من حاجات الإنسان.

وإنك لتجد هذه الملامح في الإعجاز الشرعي :

فمثلاً إذا تأملت في العموم اللفظي وجدته كأصل الشجرة الواحدة تقوم عليها تلك الفروع الكثيرة ، فاللفظ العام يشتمل في دلالته على فروع كثيرة ، أصله لفظ واحد وفروعه لا تنحصر.

وإذا نظرت في مثال آخر وهو العموم المعنوي وجدت جزئيات من الشريعة قد اجتمعت من كل مكان على معنى واحد ، فأصبح هذا المعنى جنساً ينتج لنا أحكاماً خاصة بمسائل كثيرة بل يصبح مثل العموم اللفظي ، فهناك لفظ عام تبني عليه فروع شتى ، وهنا جزئيات كثيرة يخرج منها أصل واحد يحكم به على جزئيات لا تنحصر ، فهل رأيت مثل هذا الإعجاز ، شجرة واحدة في الأصل تنمو فروعها وتتكاثر ، وجزئيات متتائية من تراب وماء وهواء وبذور - تجتمع لتخرج بإذن الله شجرة ذات فروع كثيرة ، عمومات لفظية - هي عدمة الشريعة - يتفرع عن كل واحد منها فروع لا تنحصر ، وجزئيات كثيرة يتفرع عنها فروع كثيرة جداً تشابها في الحكم - عن طريق القياس الشرعي - وهذه الجزئيات تجتمع مرة أخرى لتنتج العموم المعنوي فيحكم به على فروع لا تنحصر. هكذا في دورة تشريعية معجزة لا أجد لها شبيهاً إلا تلك الدورة الفلكية أو دورة الزروع والثمار المعجزة في الخلقة ، التي ظنها قد تقف فينقطع عطاها ، فكلما طاف بك طائف من شك أبصرتها تنطلق في دورة جديدة تبدد تلك الشكوك ، هذه دورة الإعجاز الكوني الذي يقول الله عنها متحدياً البشر في جميع العصور: ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ))

[القمان: ١١].

وهذه هي دورة الإعجاز الشرعي الذي يقول الله عنها متحدياً كذلك: ((قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتٍ رَّبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتٍ رَّبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا)) [الكهف: ١٠٩].

أقول - والله أعلم بمراده - إن هذه الشريعة وهي كلام الله لا تنفذ أبداً مهما قدر الله أن يخلق من الأجيال على هذه الأرض وسيجد فيها كل جيل ما يحتاجه يستنبطه منها علماؤه فلا تنفذ أبداً ، بل ينفذ البحر دون أن ينفذ منها شيء .
الهوامش:

١ - تتحدث هنا عن الوضع السوي الذي خلق الله الإنسان له ، وإلا فإن هناك أجيالاً تحرف عن مقصد الإعجازين الكوني والتشريعي فلا هي استثمرت طاقات الكون ، ولا هي اتبعت الشريعة ، وهذه الحالة السيئة مرت بأجيال كثيرة جداً من أجيال البشرية .

فقه

التسعير في الفقه الإسلامي

عثمان جمعة ضميرية

ما حكم التسعير ، وهل هو جائز إطلاقاً ، أو محرم إطلاقاً ، أو يجوز في حين دون آخر ، ومتى يجوز ومتى لا يجوز؟ هذا ما سنبحثه بشيء من الإيجاز ، نبين فيه آراء العلماء ومستدتهم ، ليظهر الرأي الراجح ، بتوفيق الله تعالى .

- ١ -

التسعير في اللغة هو : تقدير السعر ، أو هو الذي يقوم عليه الثمن ، وجمعه : أسعار ، وقد أسعروها وسّعّروا بمعنى واحد ، أي : اتفقوا على سعر .

وقال الفيومي في المصباح المنير : سعرت الشيء (تسعيراً) : جعلت له (سعرًا) معلوماً ينتهي إليه ، وأسّعرته (بالألف ، لغة ، وله (سعر) إذا زادت قيمته ، وليس له (سعر) إذا أفرط رخصه (١)).
وفي الاصطلاح الفقهي : اختلفت عبارات الفقهاء في تعريفه ، وفيما يلي بعض تعريفاتهم:
١ - عرف القاضي البيضاوي السعر بأنه: القيمة التي يشيع البيع عليها في الأسواق ، والتسعير : تقدير هذه القيمة (٢).

٢ - وبين ابن القيم حقيقة التسعير، فقال : إنه إلزام بالعدل ومنع عن الظلم ، وهو يشمل تسعير السلع والأعمال ، ويتحقق في هذا مع شيخه ابن تيمية ، رحمه الله (٣).

٣ - وعرف الشوكاني التسعير بأنه: أمر السلطان ونوابه ، أو كل من ولی من أمور المسلمين شيئاً ، أهل السوق ألا يباعوا أموالهم إلا بسعر كذا ، فيمنعون من الزيادة أو النقصان لمصلحة (٤).

- ٢ -

وقد ذهب جمهور العلماء : أبو حنيفة والشافعي وأحمد، إلى أنه لا يجوز للحاكم أن يسرع على الناس مطلقاً ، وإن فعل ذلك يكون فعله هذا إكراهاً يكره معه البيع والشراء ، ويمنع صحة البيع عند بعضهم.

وذهب المالكية إلى جواز التسعير في الأوقات مع الغلاء، وقالوا: ليس لمن أتى السوق، من أهله أو من غير أهله، أن يبيع السلعة بأقل من سعرها، ويمنع من ذلك. ولهم أن يبيع بأكثر.

وذهب بعض العلماء، كسعيد بن المسيب، وربيعة بن عبد الرحمن: إلى جواز التسعير مطلقاً.

وذهب كثير من العلماء ، كمتاخرى الحنفية وبعض الحنابلة ، كابن تيمية وابن القيم إلى جواز التسعير في أحوال خاصة ، بل وإلى وجوبه أحياناً أخرى^(٥).
ويتمكن تصنيف هذه المذاهب والأقوال ورجوعها إلى مذهبين اثنين : مذهب القائلين بتحريم التسعير ومنعه ، ومذهب القائلين بجوازه.

- ٣ -

استدل المانعون للتسعير بأدلة ، منها ما يأتي:

١ - حديث أنس رضي الله عنه ، قال : غلا السعر في المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال الناس: يا رسول الله غلا السعر ، فسurer لنا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله هو المسعر ، القابض الباسط الرازق ، وإنني لأرجو أن ألقى الله عز وجل ، وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال " ^(٧).

وجه الدلالة في هذا الحديث من وجهين :

أحدهما : أنه لم يسرع وقد سأله ذلك ، ولو جاز لأصحابهم إليه.

الثاني : أنه علل الامتناع عن التسعير بكونه مظلمة ، والظلم حرام^(٨).

٢ - ما رواه مالك في الموطأ عن سعيد بن المسيب : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بحاطب بن أبي بلتعة ، وهو يبيع زبيباً له في السوق ، فقال له عمر: إما أن تزيد في السعر ، وإما أن ترفع من سوقنا ^(٩). فلما رجع عمر حاسب نفسه ، ثم أتى حاطباً في داره ، فقال: إن الذي قلت لك ليس عزمة مني ولا قضاء ، إنما هو شيء أردت به الخير لأهل البلد ، فحيث شئت فبع ، وكيف شئت فبع.

وقال مالك: لو أن رجلاً أراد فساد السوق فحط عن سعر الناس ، لرأيت أن يقال له : إما لحقت بسعر الناس ، وإما رفعت ، وأما أن يقال للناس كلهم - يعني لا تبيعوا إلا بسعر كذا - فليس ذلك بالصواب ^(٩).

٣ - قال الشافعى رحمه الله: إن الناس مسلطون على أموالهم ، ليس لأحد أن يأخذها ، أو شيئاً منها؛ بغير طيب أنفسهم إلا في الموضع التي يلزمهم الأخذ فيها ، وهذا ليس منها. والله تعالى يقول: ((لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم)) [النساء: ٢٩] ^(١٠).
وقال قاضي زاده الحنفي : إن الثمن حق العاقد ، فإليه تقديره ، فلا ينبغي للإمام أن يتعرض لحقه ، إلا إذا تعلق به دفع ضرر العامة ^(١١).

٤ - التسعير سبب الغلاء ، لأن الجالبين إذا بلغتهم ذلك لم يقدموا بسلعهم بلداً يكرهون على بيعها فيه بغير ما يريدون ، ومن عنده البضاعة يمتنع من بيعها ويكتملها ، ويطلبها أهل الحاجة إليها فلا يجدونها إلا قليلاً ، فيرتفعون في ثمنها ليصلوا إليها ، فتغلب الأسعار ويحصل الإضرار بالجانبين: جانب المالك ، في منعهم من بيع أملاكهم ، وجانب المشتري في منعه من الوصول إلى غرضه ، فيكون حراماً ^(١٢).

- ٤ -

وبالنظر في هذه الأدلة التي سبقت يتبيّن أنها لا تدل على المنع من التسعير كقاعدة عامة في كل الأحوال والظروف ، ولكنها تدل على المنع من التسعير في الأحوال العاديّة التي يكون التسعير فيها مجحفاً بحق البائع أو العامل الذي يقوم بما يجب عليه من امتناع عن الاحتكار أو التواطؤ لإغلاء

الأسعار ورفعها ، وذلك أن الامتناع عن التسعير جاء معللاً ، والأحكام تدور مع العلة وجوداً وعدماً .

فالحديث الشريف يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم - امتنع عن التسعير نظراً لأن فيه مظلمة ، وذلك لأنه لم يكن هناك ما يقتضي التسعير في ذلك الوقت. لأن ارتفاع الأسعار لم يكن بفعل التجار واحتكارهم ، وإنما كان ذلك نتيجة لعوامل أخرى لا دخل فيها لهم (١٣) . وقد رد شيخ الإسلام احتجاجهم بالحديث وبين علة امتناع النبي صلى الله عليه وسلم - عن التسعير فقال : (وإنما لم يقع التسعير في زمان النبي صلى الله عليه وسلم - بالمدينة؛ لأنهم لم يكن عندهم من يطعن ويذبح بكراء (أجرة) ، ولا من يبيع طحينًا وخبزًا ، بل كانوا يشترون الحب ويطحنونه ويذبحونه في بيوتهم ، وكان من قدم بالحب لا يتلقاه أحد ، بل يشتريه الناس من الجلابين ، ولهذا جاء في الحديث : « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » (١٤) ؟ وكذلك لم يكن في المدينة حائط ، بل كان يقدم عليهم بالثياب من الشام واليمن وغيرهما ، فيشترونها ويلبسونها) (١٥) .

وقال أيضاً : (من احتج على منع التسعير مطلقاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم - « إن الله هو المسعر... » قيل له : هذه قضية معينة ، وليس لها فعلاً عاماً ، وليس فيها أن أحداً امتنع من بيع ما يحتاجون إليه ، ومعلوم أن الشيء إذا قل رغب الناس في المزايدة فيه ، فإذا بذلك صاحبه ، كما جرت به العادة ، ولكن الناس تزايدوا فيه - فهنا لا يسرع عليهم .

ثم ضرب أمثلة على جواز إخراج الشيء عن يد مالكه بعوض المثل ،

وقال : والمقصود أنه إذا كان الشارع يوجب إخراج الشيء من ملك مالكه بعوض المثل لمصلحة تكميل العتق ، ولم يمكن المالك من المطالبة بالزيادة على القيمة ، فكيف إذا كانت الحاجة بالناس إلى التملك أعظم وهم إليها أضر ؟ مثل حاجة المضطر إلى الطعام والشراب واللباس وغيره (١٦) .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه لجامع الترمذى : (قال سائر العلماء بظاهر الحديث ، لا يسرع على أحد . الحق: التسعير، وضبط الأمر على قانون لا تكون فيه مظلمة على أحد من الطائفتين ، وذلك قانون لا يعرف إلا بالضبط للأوقاف ومقادير الأموال . وما قاله النبي صلى الله عليه وسلم - حق وما فعله حكم ، لكن على قوم صح ثباتهم ، واستسلموا إلى ربهم . وأما قوم قدروا أكل أموال الناس والتضييق ، فباب الله أوسع وحكمه أمضى) (١٧) .

وأما ما رواه الإمام مالك في الموطأ ، من قصة عمر بن الخطاب مع حاطب بن أبي بلتعة فيري بعضهم : أنه يتعلق بالبيع بأقل من ثمن المثل ، وعندئذ فلا يجوز للحاكم أن يتدخل في تحديد السعر ، لأنه إنما يتدخل بالتسخير إذا عرضت السلعة بأكثر من ثمن المثل لما في هذا العرض من استغلال حاجة الناس ، وأما إن عرضت بأقل من السعر فلا يجوز التدخل .

فإن قيل : في هذا ضرر على أهل السوق ؟ فالجواب : أن هذا باطل ، بل في قولكم أنتم الضرار على أهل البلد كلهم ، وعلى المساكين ، وعلى هذا المحسن إلى الناس ، ولا ضرر في ذلك على أهل السوق ، لأنهم إن شاءوا أن يرخصوا كما فعل هذا فليفعلوا ، وإنما فهم أملك بأموالهم ، كما أن هذا أملك بماله) (١٨) .

وقال ابن رشد في البيان والتحصيل : لا يلام أحد على المسامحة في البيع والحططة فيه ، بل يشكر على ذلك إن فعله لوجه الناس ، ويؤجر إن فعله لوجه الله تعالى (١٩) .

وأما أن الناس مسلطون على أموالهم ، فهذا صحيح ، ولكنه ليس على إطلاقه ، إذ هناك قواعد أخرى تحكم على هذا الأصل ، كقاعدة رفع الضرر ، وقاعدة المصلحة العامة ووجوب تقديمها على

المصلحة الخاصة ، كما أن الرضا لا يعتبر في بعض الحالات التي يتعارض فيها هذا مع مصلحة عامة. كما أن التسعير لا يخالف آية الرضا في التعامل.

الخلاصة : وبهذا تبين أن التسعير ليس فيه مخالفة للحديث الشريف ولا للآية الكريمة التي استدل بها المانعون للتسعير ، كما أن فيه مصلحة عندما تدعو الحاجة إليه ، لذلك أجازه الحنفية أيضاً : "إذا تعلق به رفع ضرر العامة ، فإذا كان أرباب الطعام يتحكمون ويتعدون عن القيمة تعدياً فاحشاً كالبيع بضعف القيمة ، وعجز القاضي عن صيانة حقوق المسلمين إلا بالتسعير، فحينئذ لا بأس بمشورة من أهل الرأي وال بصيرة ، إذا تعدى أرباب القوانين وظلموا العامة ، فيسرع عليهم الحاكم دفعاً للضرر عن المسلمين ، بناء على ما قاله أبو يوسف ، فإنه اعتبر حقيقة الضرر ، إذ هو المؤثر في الكراه " (٢٠).

كما أجازه الشافعية أيضاً عند الاضطرار ، كما نقل ذلك عنهم ابن تيمية وابن القيم ، حيث يقول ابن القيم رحمة الله : "وأبعد الأئمة عن إيجاب المعاوضة وتقديرها هو الشافعي ، مع هذا فإنه يوجب على من اضطرر الإنسان إلى طعامه أن يبذلته بثمن المثل ، وتتزاع أصحابه في جواز تسعير الطعام إذا كان الناس حاجة إليه ، ولهم فيه وجهان" (٢١).

-٥-

وبهذا أصبح التقارب حاصلاً بين المجيزين للتسعير والمانعين ، لأن التسعير إذا كان ظلماً ، وال الحاجة لا تدعوه إليه فهو غير جائز ، ولا ينبغي لولي الأمر أن يفعله. وإن كان فيه مصلحة ورفع ضرر عن العامة جاز لولي الأمر ، بل وجب عليه ذلك إن تعين طريقاً لتحقيق المصلحة.

وهذا هو ما حرره ابن القيم وبسطه وأقام الأدلة عليه حيث قال: "... وأما التسعير ؛ فمنه ما هو محظوظ منه ما هو عدل جائز ، فإذا تضمن ظلم الناس ، وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه ، أو منعهم مما أباح الله لهم فهو حرام ، وإذا تضمن العدل بين الناس مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم منأخذ الزيادة على عوض المثل فهو جائز ، بل واجب.

فأما القسم الأول : فمثل ما روي عن أنس : غلا السعر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - ... ؟ فإذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم وقد ارتفع السعر - إما لفلة الشيء وإما لكثره الخلق - فهذا إلى الله ، فالالتزام الناس أن يبيعوا بقيمة بعينها إكراه بحق.

وأما الثاني : فمثل أن يتمتع أرباب السلع من بيعها - مع ضرورة الناس إليها - إلا بزيادة على القيمة المعروفة ؛ فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ، ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل ، والتسعير هنا إلزام بالعدل الذي ألزمهم الله به، فالتسعير في مثل هذا واجب بلا نزاع ، وحقيقة الإلزام بالعدل ومنع من الظلم ، وهذا كما أنه لا يجوز الإكراه على البيع بغير حق ، فيجوز أو يجب الإكراه عليه بحق.

-٦-

إلا أن التسعير ليس قاعدة عامة في المعاملات المالية - كما سبق - فلا يلجأ إليه ولـي الأمر إلا إذا دعت الحاجة ، وقد ذكر بعض الباحثين. أربع حالات تتدخل فيها الدولة بتسعير السلع ، بل بإجبار أصحابها على بيعها ، وهي نموذج لحالات أخرى تتحقق المصلحة فيها بالتسعير :

- ١ - حاجة الناس إلى السلعة.
- ٢ - الاحتكار.

- ٣ - حالة الحصر (حصر البيع بأناس مخصوصين).
- ٤ - حالة تواطؤ البائعين (٢٢).

-٧-

فإذا اقتضت المصلحة والعدل التسعير ، فإن واجبولي الأمر أن يفعل ذلك ، ولكن يجب أن يتحقق هذا السعر العدالة ، وأن لا يكون مجحفاً بأحد الطرفين : البائع والمشتري ، وأن لا يدخل على أحدهما الضرر ، وبذلك يتحقق السعر الصالح الذي يسمح بعلاقات أخوية بين البائع والمشتري " (٢٣) ، ولتحقيق ذلك يستعين بأهل الخبرة والرأي.

وقال ابن حبيب من فقهاء المالكية ، في صفة التسعير : "ينبغي للإمام أن يجمع وجوه أهل سوق ذلك الشيء ويحضر غيرهم استظهاراً على صدقهم ، فيسألهم : كيف يشترون؟ وكيف يبيعون؟ فينماز لهم إلى ما فيه لهم وللعمامة سداد حتى يرضوا به... وعلى هذا أجازه من أجازه . ووجه ذلك : أن بهذا يتوصل إلى معرفة مصالح الباعثة والمشترين ، ويجعل للباعثة في ذلك من الربح ما يقوم بهم ولا يكون فيه إجحاف بالناس... " (٢٤).

وجماع الأمر :

أن مصلحة الناس إذا لم تتم إلا بالتسuir سعر عليهم تسعير عدل ، لا وكس فيه ولا شطط - لا نقصان ولا زيادة - وإذا اندفعت حاجتهم وقامت مصلحتهم بدونه لم يفعل . وبالله التوفيق .

الهوامش :

- ١ - انظر المصباح المنير: ٢٧٧/١ ، وراجع مادة "سعر" في لسان العرب وأساس البلاغة.
- ٢ - رسائل مفتى زاده نقلأً عن: الملكية في الشريعة ، د. عبد السلام العبادي : ٣٠١، /٢
- ٣ - الطرق الحكمية ، لابن القيم ، ص (٣٨٧) ، طبعة محي الدين عبد الحميد.
- ٤ - نيل الأوطار للشوكانى : ٥ / ٣٣٥ ، دار الجيل ، بيروت.
- ٥ - انظر: الهدایة للمرغینانی مع فتح القدير والعنایة: ١٢٧/٨ ، بدائع الصنائع ٢٩٧/٦ ، حاشیة ابن عابدین: ٣٩٩/٦ - ٤٠٠ ، المعني لابن قدامة: ٤/٢٣٩ - ٢٤٠ ، منتهی الإرادات : ٢/١٥٩ ، الأحكام السلطانية للماوردي : ص (٢٥٦) ، المحلی لابن حزم : ٩/٦٧٢ ، سبل السلام للصناعي: ٣/٣٢ .
- ٦ - أخرجه أبو داود في الإجازات ، باب التسعير: ٩/٩٢٥ ، والترمذی في البيوع ، باب ما جاء في التسعير ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في التجارات ، باب من كره أن يسْعَر: ٢٧١/٤٧١ - ٤٧٢ ، وصححه ابن حبان ، ص (٢٧١) من موارد الظمان ، وعزاه في تحفة الأحوذى لأبي يعلى والبزار.
- ٧ - المعني لابن قدامة: ٤/٤ وانظر: سبل السلام : ٣/٣٢.
- ٨ - الموطأ للإمام مالك ، ص (٢٧٩) من روایة الإمام محمد بن الحسن ، و (٦٥١) من روایة يحيى الليثي.
- ٩ - انظر: الطرق الحكمية لابن القيم ، ص (٢٩٨) ، المعني ٤/٢٤٠ ، المحلی لابن حزم: ٩/٦٧٣.
- ١٠ - الطرق الحكمية ، ص (٣٠٠).
- ١١ - العنایة للبابرتی على الهدایة للمرغینانی: ٨/١٢٧.
- ١٢ - المعني لابن قدامة: ٤/٤٢٤٠.
- ١٣ - انظر: الخراج لأبي يوسف ، ص (٥٣ - ٥٢).

- ٤ - أخرجه ابن ماجه في التجارات : على بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف ، وعزاه في نصب الرأية : ٢٦١ لإسحاق بن راهويه والدارمي وعبد بن حميد وأبو يعلى في مسانيدهم ، والبيهقي ، ورواه العقيلي في الصفاء ، وأخرج مسلم في البيوع ، باب تحريم الاحتكار في الأقوات عن عمر بن عبد الله العدوي : (لا يحتكر إلا خاطئ) .
- ٥ - الطرق الحكمية ، ص (٢٩٨) ، آراء ابن تيمية في الدولة... للأستاذ محمد المبارك ، ص (١٢١).
- ٦ - الطرق الحكمية ، (٣٠٣ - ٣٠٤) .
- ٧ - عارضة الأحوذى شرح الترمذى ، لابن العربي.
- ٨ - المحلى لابن حزم : ٦٧٤/٩ .
- ٩ - شرح الزرقاني على الموطأ: ٢٩٩,٣ .
- ١٠ - انظر: الهدایة وشرحها ، ١٢٧/٨ ؟ حاشية ابن عابدين: ٤٠١-٤٠٠/٦ .
- ١١ - الطرق الحكمية ، ص (٣٠٧) ، آراء ابن تيمية ، ص (١٢٤) ، وظاهر الأحاديث لا تفرق بين الطعام وغيره ، والضرر يكون بإغلاء ثمن الطعام وغيره من الحاجيات.
- ١٢ - انظر الطرق الحكمية ، ص (٢٨٧-٢٨٥) .
- ١٣ - الإسلام والتنمية الاقتصادية ، تعریف نبیل صبحی ، ص (٤٤) ، وانظر: المبادئ الاقتصادية والبناء الاقتصادي للدولة ، ص (٧١-٧٦) ، الهدایة وشرحها في الفقه الحنفي: ١٢٧,٧ .
- ١٤ - انظر: المنتقى للباجي ، شرح موطن الإمام مالك : ١٩٥ .

شذرات وقطوف الخلق العظيم

إعداد : نجوى محمد الدمياطي

قال الإمام أحمد حدثنا أسود ، حدثنا شريك عن قيس بن وهب عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالت : أما تقرأ القرآن؟ ((ولَئِنْ كُلَّا خُلُقَ عَظِيمٍ)) قال: قلت حدثني عن ذاك ، قال : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً، فقلت لجارتي : اذهبى ، فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبل فاطرحي الطعام ، قالت: فجاءت بالطعام قالت : فألقته الجارية فوقعت القصعة فانكسرت (وكان نفع) قالت : فجمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقال :

"اقتضوا ، أو اقتضي (شك أسود) ظرفاً مكان ظرفك " ، قالت : بما قال شيئاً.

تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٤ / ٤٠٢

المُشَرّع

فى لغة العلم الشرعي فإن هذا المعنى لا تجد إطلاقه في حق النبي صلى الله عليه وسلم - ولا في حق عالم من علماء الشريعة المطهرة،.. فلا يقال لبشر: شارع ولا مشرع ، وفي نصوص الكتاب والسنة إسناد التشريع إلى الله سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ((شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي

أو حَيْنَا إِلَيْكَ) وفي الحديث أنه حَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ سَنَنَ الْهُدَى » رواه مسلم ، لهذا فإن قصر إسناد ذلك إلى الله سبحانه وتعالى أخذ في كتاب علماء الشريعة على اختلاف فنونهم صفة التقييد فلا نرى إطلاقه على بشر حسب التتبع.

معجم المناهي الفظية للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد

صراع اجتماعي

من أهم الحقائق المفترضة في صراعنا مع الجاهلية أنه صراع اجتماعي ، قائم بين واقع إسلامي وواقع جاهلي.

وافتراض هذه الحقيقة يحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة الاجتماعية في كل مراحل الصراع .. من لحظة الاستضعاف إلى فرصة التمكين ووقت الامتداد ..

ففي بيت الدعوة تنشأ الحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ بمقاييس الدعوة في حياة الدعاة ، مثل الحد بين زينة الله التي أخرج لعباده والترف المحظور ، وبين السكن إلى الزوجة والركون إليها ، وبين السعي المشروع للرزق والانشغال المنهي عنه بالمال ، وبين الحب الفطري للذرية وبين الافتتان بها ..

وفي بيت الدعوة تكون حياة الكفاح منبعاً للحب لا يجف بين الزوجين ، فالحياة في بيت الدعوة إما لحظة وداع وأمل ، أو لحظة حنين وشوق ، أو لحظة لقاء وفرحة ، فهي حياة طيبة ، وعيشة راضية ، وعمر مبارك ، ووقت مليء .

بيت الدعوة - رفاعي سرور

بحث

اعتقاد أهل السنة في الصحابة

(٢)

محمد الوهبي

٣- إن سب صحابياً لم يتواتر النقل بفضله سبًا يطعن في الدين ... بينما في الفقرة السابقة رجحان تكفير من سب صحابياً تواترت النصوص بفضله من جهة دينه . أما إن لم تتواتر النصوص بفضله فقول جمهور العلماء بعدم كفره ، وذلك لعدم إنكاره معلوماً من الدين بالضرورة إلا أن يسبه من حيث الصحابة .

٤- إن سب بعضهم سبًا لا يطعن في دينهم وعدالتهم... فلا شك أن فاعل ذلك يستحق التعزير والتأديب ، ولكن وحسب مطالعتي لأقوال العلماء في المراجع المذكورة لم أر أحداً منهم يكرر فاعل ذلك " ولا فرق عندهم بين كبار الصحابة وصغرائهم " .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "... وأما إن سبهم سبًا لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل أو الجبن أو قلة العلم أو عدم الزهد ونحو ذلك فهو الذي يستحق التأديب والتعزير ولا حكم بکفره بمجرد ذلك ، وعلى هذا يحمل كلام من لم يکفرهم من العالم"(١) وذكر أبو يعلى من الأمثلة على ذلك : "اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة (٢)" .

ومما يشبه ذلك اتهامهم بضعف الرأي، وضعف الشخصية والغفلة وحب الدنيا ونحو ذلك وهذا النوع من الطعن تطفح به كتب التاريخ وكذلك الدراسات المعاصرة لبعض المنسوبين لأهل السنة باسم الموضوعية والمنهج العلمي وللمستشرقين أثر في غالب الدراسات من هذا النوع.

ولعل من المناسب هنا أن نقف وقفة قصيرة جداً نبين فيها فساد هذا المنهج وخطورة تطبيقه على تاريخ الصحابة، ونبأ ذلك بالتعريف بالمنهج الموضوعي عند الغربيين، المنهج الموضوعي "أن يبحث الموضوع بحثاً عقلياً مجدداً بعيداً عن التصورات الدينية" (٣)، فنقول رداً على ذلك :

أ- المسلم لا يمكن أن يتجرد عن عقيدته بأي حال من الأحوال إلا أن يكون كافراً بها (٤).

ب- وكذلك نقول بالنسبة للتاريخ الإسلامي : إذا ثبتت الحوادث في ميزان نقد الرواية فبأي منهج نفهمها ونفسرها؟ إذا لم نفسرها بالمنهج الإسلامي فلا بد أن نختار منهاجاً آخر فنفع في الانحراف من حيث لا نعلم وبناء على ذلك يجب أن نحذر من تطبيق هذا المنهج على تاريخ الصحابة ويجب أن نعلم أيضاً "أن ما يسمى بالنقض العلمي أو الموضوعي لتاريخ الصحابة هو السب الوارد في كتب أهل البدع وفي كتب الأخبار ، وتسميته بالمنهج العلمي لا يخرجه عن حقيقته التي عرف بها عند أهل السنة ، وأيضاً تسميته بذلك لا تعلي من قيمته ، كما لا يعلي من قيمته أن يردده كتاب مشهورون ، وفيهم أولوا فضل وصلاح ، وإنما كل ما فعله المحدثون أن أحياوا هذا السب الذي أماته أهل السنة لما كانت الدولة دولتهم (٥).

والذي أوصي به نفسي وإخواني الباحثين في تاريخ الصحابة أن لا يتخلوا عن عقيدتهم وموتها الاعتقاد بعدلة الصحابة وتحريم سبهم - عند بحثهم ، فالله أعلم أن يؤتى الإسلام من قبلهم ، وليعلموا أن لأهل السنة منهاجاً واضحاً في النظر إلى تلكم الأخبار كما سيأتي في آخر البحث.

٥- سب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه...أجمع أهل العلم على أن من سب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه فقد كفر قال القاضي أبو يعلى : "من قذف عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه كفر بلا خلاف. وقد حکى الإجماع على هذا غير واحد وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم فروي عن مالك "من سب أبا بكر جلد ومن سب عائشة قتل " قيل له : لم؟ قال : من رماها فقد خالف القرآن (٦). وقال ابن شعبان في روايته عن مالك لأن الله تعالى يقول: ((يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمُثْلِهِ أَبْدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) فمن عاد لمثله فقد كفر" (٧).

والأدلة على كفر من رمى أم المؤمنين صريحة وظاهرة الدلالة منها:

أ- ما استدل به الإمام مالك أن في هذا تكذيباً للقرآن الذي شهد ببراءتها ، وتكذيب ما جاء به القرآن كفر. قال الإمام ابن كثير : " وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمها بما رماها به بعد هذا الذي ذكره في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن (٨) ، وقال ابن حزم تعليقاً على قول الإمام مالك السابق : " قول مالك هاهنا صحيح ، وهي ردة تامة وتكذيب الله تعالى في قطعه ببراءتها " (٩).

ب- أن فيه إيذاء وتنقيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم- من وجوه دل عليها القرآن الكريم.

١- فرق ابن عباس رضي الله عنهما بين قوله عز وجل:((وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءِ)) ... الآية سورة النور ، وبين قوله عز وجل:((إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)) ... الآية سورة النور ، فقال عند تفسير الآية الثانية : " هذه في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم- خاصة وهي مبهمة ليس فيها توبة. ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ:((وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءِ)) إلى قوله:((إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)) فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة.

قال فَهُمْ رَجُلٌ أَنْ يَقُولَ رَأْسِهِ مِنْ حَسْنٍ مَا فَسَرَ "فَقَدْ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ فِيمَنْ قَذَفَ عَائِشَةَ وَأَمْهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ لَمَا فِي قَذْفِهِنَّ مِنْ الطَّعْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعِيهِ فَإِنْ قَذَفَ الْمَرْأَةَ أَذْى لِزَوْجِهَا كَمَا هُوَ أَذْى لِأَبِيهَا لَأَنَّهُ نَسْبَةً لَهُ إِلَى الْدِيَاثَةِ وَإِظْهَارِ لِفَسَادِ فَرَاسِهِ . وَأَنْ زَنَّا امْرَأَتَهُ يُؤْذِي أَذْى عَظِيمًا... وَلَعِلَّ مَا يُلْحِقُ بَعْضَ النَّاسِ مِنَ الْعَارِ وَالْخَزِيرِ بِقَذْفِ أَهْلِهِ أَعْظَمُ مَا يُلْحِقُهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْمَقْذُوفُ" (١٠).

٢- وَإِيَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ ، قَالَ الْقَرْطَبِيُّ عِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) [النور] ، يَعْنِي فِي عَائِشَةَ لَأَنَّ مَثْلَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا نَظِيرُ الْقَوْلِ فِي الْمَقْوُلِ عَنْهُ بَعْيَنِهِ ، أَوْ فِيمَنْ كَانَ فِي مَرْتَبَتِهِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ إِذَا يَرَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَرْضِهِ وَأَهْلِهِ وَذَلِكَ كَفَرَ مِنْ فَاعْلَهُ" (١١).

وَمَا يَدْلِي عَلَى أَنْ قَذَفَهُنَّ أَذْى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا خَرَجَ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي حَدِيثِ الْإِفَاكِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَاسْتَعْذَرَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سَلَوْلَ قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : يَا مَعْشِرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي... .

فَقَوْلُهُ : مِنْ يَعْذِرْنِي أَيُّ مِنْ يَنْصُفْنِي وَيَقِيمْ عَذْرِي إِذَا انتَصَفَتْ مِنْهُ لَمَّا بَلَغَنِي مِنْ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي وَاللَّهُ لَهُمْ.

فَقَبَّلَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ تَأْذَى بِذَلِكَ تَأْذِيَاً اسْتَعْذَرَ مِنْهُ وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ لَمْ تَأْخُذْهُمْ حُمَيْةُ مَرْنَا نَضَرَبْ أَعْنَاقَهُمْ فَإِنَا نَعْذِرُكَ إِذَا أَمْرَتَنَا بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ ، وَلَمْ يَنْكُرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَعْدٍ اسْتَئْمَارَهُ فِي ضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ" (١٢).

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَابِ : "وَمَنْ يَقْذِفُ الطَّاهِرَةَ الطَّيِّبَةَ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ زَوْجَةُ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنْهُ فَهُوَ مِنْ ضَرْبِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سَلَوْلَ رَأْسِ الْمَنَافِقِينَ وَلِسَانَ حَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : "يَا مَعْشِرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ يَعْذِرْنِي فِيمَنْ آذَانِي فِي أَهْلِي" (١٣) ((وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِلَمًا مُّبِينًا)) [الْأَحْزَاب / ٥٨] ، فَأَيُّنَّ انصَارَ دِينِهِ لَيَقُولُوا نَحْنُ نَعْذِرُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟... (١٤).

٣- كَمَا أَنَّ الطَّعْنَ بِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِيهِ تَنْقِيْصٌ بِرِسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ جَانِبِ أَخْرَى ، حِيثُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ((الْخَبِيَّثُاتُ لِلْخَبِيَّثِينَ)) [الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ النُّورِ] ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : "أَيُّ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَائِشَةَ زَوْجَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَةٌ لَأَنَّهُ أَطِيبُ مِنْ كُلِّ طَيِّبٍ مِنَ الْبَشَرِ وَلَوْ كَانَتْ خَبِيَّةً لَمَا صَلَحَتْ لَهُ لَا شَرِعاً وَلَا قَدْرًا وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى : ((أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ)) أَيُّهُمْ بَعْدَهُ عَمَّا يَقُولُهُ أَهْلُ الْإِفَاكِ وَالْعُدُوانِ" (١٥).

٥- سبب بقية أمهات المؤمنين..

اختلف العلماء في قذف بقية أمهات المؤمنين ، والراجح الذي عليه الأكثرون كفر فاعل ذلك ، "لأنَّ المقدوفة زوجة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا غَضِبَ لَهَا لَأَنَّهَا زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهِيَ وَغَيْرُهَا مِنْهُنَّ سَوَاءً" (١٦).

وكذلك يُكفر لأنَّ في ذلك تَنْقِيْصٌ وأذى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَذْفِ حَلِيلِهِ (١٧) ، وقد بَيَّنَ ذَلِكَ عَنْ كَلَامِنَا عَنْ حُكْمِ مِنْ قَذْفِ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَلِيَرَاجِعٍ.

أما إن سب أمهات المؤمنين سبًا غير ذلك فحكمهن حكم سائر الصحابة على التفصيل المذكور سابقاً.
والله أعلم.

٦ - لوازم السب :

تيفظ السلف الصالح رضوان الله عليهم لخطورة الطعن في الصحابة وسبهم ، وحدروا من الطاعنين ومقاصدهم ، وذلك لعلهم بما قد يؤدي إليه ذلك السب من لوازم باطلة تناقض أصول الدين .
فقال بعضهم كلمات قليلة لكنها جامعه ذكرها في مقدمة هذا البحث ثم أوضح - بعض الشيء - ما يترتب على السب غالباً.

وسأركز في الرد على السابة من القسم الأول والثاني ممن يزعمون كفر أو فسق مجموع الصحابة أو أكثرهم أو الطعن في عدالة من توالت النصوص بفضلهم كالخلفاء رضي الله عنهم . قال الإمام مالك -رحمه الله- عن هؤلاء : "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدر في النبي صلى الله عليه وسلم . فلم يمكنهم ذلك فقدحوا في أصحابه ، حتى يقال رجل سوء ، ولو كان رجلاً صالحًا لكان أصحابه صالحين" (١٨) ، وقال الإمام أحمد رحمه الله : "إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام" (١٩) .

وقال أبو زرعة الرازي رحمه الله : "إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأعلم أنه زنديق وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم - عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - ؟ وإنما يريدون أن يحرروا شهودنا ليبيطلو الكتاب والسنة والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة" (٢٠) . وقال الإمام أبو نعيم رحمه الله : "فلا يتبع هفوات أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - وزللهم ويحفظ عليهم ما يكون منهم في حال الغضب والموجة إلا مفتون القلب في دينه" (٢١) ويقول أيضاً : " .. لا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي صلى الله عليه وسلم - وصحابته والإسلام والمسلمين" (٢٢) ، وتحذير العلماء هنا عام يشمل جميع الصحابة ، وتأمل قول إمام أهل السنة : "يذكر أحداً من الصحابة بسوء" وقول أبي زرعة : "ينتقص أحداً .." فحدروا من ينتقص (مجرد انتقاد) أو ذكر بسوء (وذلك دون الشتم أو التكبير) أحداً (وليس جميعهم) فماذا يقال فيمن يسب أغبلهم؟ وإليك أخي القارئ إيضاح بعض لوازم السب:

١ - يترتب على القول بکفر وارتداد معظم الصحابة أو فسقهم إلا نفراً يسيرًا الشك في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وذلك لأن الطعن في النقلة طعن في المنقول ، إذ كيف ثق بكتاب نقله إلينا الفسقة والمرتدون - والعياذ بالله - ولذلك صرخ بعض أهل الضلال والبدع من يسب الصحابة بتحريف الصحابة للقرآن والبعض أخفى ذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية ، فإذا اتهم الصحابة رضوان الله عليهم في عدالتهم صارت الأسانيد مرسلة مقطوعة لا حجة فيها . ومع ذلك يزعم - بعض هؤلاء - إيمانهم بالقرآن ، فنقول لهم: يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه ، وقد علمت أن الذي فيه أنهم خير الأمم وأن الله لا يخزيهم وأنه رضي عنهم... إلخ ، فمن لم يصدق ذلك فيهم ، فهو مكذب لما في القرآن ناقض لدعواه.

٢-هذا القول يقتضي أن هذه الأمة - والعياذ بالله - شر أمة أخرجت للناس ، وسابقي هذه الأمة شرارها ، وخيرها القرن الأول كان عامتهم كفاراً أو فساقاً ، وأنهم شر القرون (٢٣) ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

٣ - يلزم من هذا القول أحد أمرتين ، إما نسبة الجهل إلى الله - تعالى عما يصفون-أو العبث في هذه النصوص التي أثني بها على الصحابة ، فإن كان الله عز وجل -تعالى عن قولهم- غير عالم بأنهم سيكفرون ومع ذلك أثني عليهم ووعدهم الحسنـ فهو جهل والجهل عليه تعالى محـال ، وإن كان الله عز وجل عالـماً بأنهم سيـكفرون فيـكون وعـده لهم بالحسنـ ورضاـه عنـهم عـبث ، والـعبـث فيـ حقـه محـال (٢٤) ، ويـتبع ذلك الطـعن فيـ حـكمـته عـز وـجلـ حيثـ اختـارـهـ واصـطـفـاهـ لـصـحبـةـ نـبـيـهـ عـلـيـهـ الصـلاـةـ والـسـلامـ فـجـاهـدوـاـ مـعـهـ وـأـزـرـوـهـ وـنـصـرـوـهـ وـاتـخـذـهـ أـصـهـارـاـ لـهـ حـيـثـ زـوـجـ اـبـنـتـيـهـ ذـاـ الـنـورـيـنـ (ـعـمـانـ) رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، وـتـزـوـجـ اـبـنـتـيـ أـبـيـ بـكـرـ وـعـمـرـ ، فـكـيفـ يـخـتـارـ لـنـبـيـهـ أـنـصـارـاـ وـأـصـهـارـاـ مـعـ عـلـمـهـ بـأـنـهـ سـيـكـفـرـونـ؟!!

٤ - لقد بـذـلـ رسـولـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ جـهـودـاـ خـارـقـةـ فـيـ تـرـبـيـةـ الصـحـابـةـ عـلـىـ مـدـىـ ثـلـاثـةـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ حـتـىـ تـكـوـنـ بـفـضـلـ اللـهـ عـزـ وـجلـ الـمـجـتمـعـ الـمـثـالـيـ فـيـ خـلـقـهـ وـتـضـحـيـاتـهـ وـزـهـدـهـ وـوـرـعـهـ فـكـانـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ أـعـظـمـ مـرـبـ فـيـ التـارـيـخـ .ـ وـلـكـ بـالـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ فـإـنـ جـمـاعـةـ تـدـعـيـ الـاـنـتـمـاءـ إـلـىـ إـلـاسـلـامـ وـنـبـيـ إـلـاسـلـامـ تـقـدـمـ لـهـ اـلـمـجـتمـعـ صـورـةـ مـعـاكـسـةـ تـهـمـ الـمـجـهـودـاتـ الـتـيـ قـامـ بـهـ الـنـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ فـيـ مـجـالـ التـرـبـيـةـ وـالتـوـجـيـهـ ، وـتـبـثـتـ لـهـ إـخـفـاقـاـ لـمـ يـواـجـهـهـ أـيـ مـصـلـحـ أـوـ مـرـبـ خـبـيرـ مـخـلـصـ (ـ٢ـ٥ـ) لـمـ يـكـنـ مـأـمـورـاـ مـنـ اللـهـ كـمـاـ كـانـ الشـأـنـ مـعـ رـسـولـ اللـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ إـنـهـ تـرـىـ أـنـ الـمـجـهـودـاتـ الـجـبـارـةـ الـتـيـ بـذـلـهاـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ لـمـ تـنـتـجـ إـلـاـ ثـلـاثـةـ (ـأـوـ أـرـبـعـةـ وـفـقـاـ لـبـعـضـ الـرـوـاـيـاتـ) ظـلـواـ مـتـمـسـكـيـنـ بـالـإـلـاسـلـامـ إـلـىـ مـاـ بـعـدـ وـفـاتـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ أـمـاـ غـيرـهـ فـقـدـ قـطـعـواـ صـلـتـهـ بـالـإـلـاسـلـامـ .ـ وـالـعـيـادـ بـالـلـهـ .ـ فـورـ وـفـاتـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ فـأـثـبـتوـاـ أـنـ صـحبـةـ الـنـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ وـتـرـبـيـتـهـ أـخـفـقـتـ وـلـمـ يـعـدـ لـهـ أـيـ تـأـثـيرـ .ـ وـهـذـاـ الزـعـمـ يـؤـديـ إـلـىـ أـلـيـأـسـ مـنـ إـصـلاحـ الـبـشـرـيـةـ .ـ

بـ - وـعـدـ الثـقـةـ بـالـمـنـهـجـ إـلـاسـلـامـيـ وـقـدـرـتـهـ عـلـىـ التـرـبـيـةـ وـتـهـذـيبـ الـأـخـلـاقـ .ـ جـ وـإـلـىـ الشـكـ فـيـ نـبـوـةـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ وـذـلـكـ أـنـ الـدـيـنـ الـذـيـ لـمـ يـسـطـعـ أـنـ يـقـدـمـ لـلـعـالـمـ عـدـدـاـ وـجـيـهاـ مـنـ نـمـاذـجـ عـمـلـيـةـ نـاجـحةـ بـنـاءـ ،ـ وـمـجـتمـعـاـ مـثـالـيـاـ فـيـ أـيـامـ الدـاعـيـ وـحـامـلـ رـسـالـتـهـ الـأـوـلـ ،ـ فـكـيـفـ يـسـتـطـعـ أـتـبـاعـهـ ذـلـكـ بـعـدـ مـضـيـ زـمـنـ طـوـيلـ عـلـىـ عـهـدـ الـنـبـوـةـ؟!ـ وـإـذـاـ كـانـ الـمـؤـمـنـوـنـ بـهـذـهـ الـدـعـوـةـ لـمـ يـسـتـطـعـواـ الـبـقـاءـ عـلـىـ الـجـادـةـ الـقـوـيمـةـ وـلـمـ يـعـودـواـ أـوـفـيـاءـ لـنـبـيـهـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ بـعـدـ اـنـتـقـالـهـ إـلـىـ الرـفـيقـ الـأـعـلـىـ ،ـ فـلـمـ يـبـقـ عـلـىـ الـصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ الـذـيـ تـرـكـ عـلـيـهـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ أـتـبـاعـهـ إـلـاـ أـرـبـعـةـ فـقـطـ ؟ـ فـكـيـفـ نـسـلـمـ أـنـ هـذـاـ الـدـيـنـ يـصـلـحـ لـتـرـكـيـةـ الـنـفـوـسـ وـبـنـاءـ الـأـخـلـاقـ؟ـ وـأـنـهـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـنـقـذـ الـإـنـسـانـ مـنـ الـهـمـجـيـةـ وـالـشـقـاءـ وـيـرـفـعـهـ إـلـىـ قـمـةـ الـإـنـسـانـيـةـ؟ـ بـلـ رـبـمـاـ يـقـالـ :ـ لـوـ أـنـ النـبـيـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ .ـ كـانـ صـادـقـاـ فـيـ نـبـوـتـهـ لـكـانـتـ تـعـالـيـمـهـ ذـاتـ تـأـثـيرـ ،ـ وـوـجـدـ هـنـاكـ مـنـ آمـنـ بـهـ مـنـ صـمـيمـ الـقـلـبـ وـوـجـدـ مـنـ بـيـنـ الـعـدـ الـهـائـلـ مـنـ آمـنـواـ بـهـ بـعـضـ الـمـئـاتـ الـذـيـنـ ثـبـتوـاـ عـلـىـ الـإـيمـانـ ،ـ فـإـنـ كـانـ أـصـحـابـهـ سـوـىـ بـعـضـ رـجـالـ مـنـهـمـ .ـ مـنـافـقـيـنـ وـمـرـتـدـيـنـ .ـ فـيـمـاـ زـعـمـواـ .ـ فـمـنـ دـانـ بـالـإـلـاسـلـامـ؟ـ وـمـنـ اـنـقـعـ بـالـرـسـولـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ؟ـ وـكـيـفـ يـكـونـ رـحـمـةـ لـلـعـالـمـيـنـ؟ـ (ـ٢ـ٦ـ)

الـعـلـمـ وـالـعـمـلـ

قالـ حـكـيمـ لـرـجـلـ يـسـتـكـثـرـ مـنـ الـعـلـمـ دـونـ الـعـمـلـ :

"ـ يـاـ هـذـاـ إـذـاـ أـفـنـيـتـ عـمـرـكـ فـيـ جـمـعـ السـلاحـ ،ـ فـمـنـ تـقـاتـلـ بـهـ؟ـ"

الـهـوـامـشـ :

٥٧٦ - نفسه ، ٢

٣ - راجع منهج كتابة التاريخ ، العلياني ١٣٨ (بتصرف).

٤ - راجع في تفصيل ، وفي الرد على دعوى الموضوعية بحث مخطوط للدكتور محمد رشاد خليل ، ص ٣٧-٣٤ .

٥ - راجع أيضاً البحث القيم للدكتور محمد رشاد خليل فمنه أخذت هذه الفقرة ، ص ٥٥ ، ٥٧ ، وفي البحث المذكور أبرز المؤلف المنهج الصحيح للنظر في تاريخ الصحابة من خلال مذهب أهل السنة فجزاه الله خيراً.

٦ - الصارم المسلول ، ٥٧١ ،

٧ - الشفا ، م ٢ ، ص ١١٠٩ ،

٨ - ابن كثير ٢٧٦/٣ عند تفسير قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)) وذكر الإجماع في البداية والنهاية ٩٢/٨ .

٩ - المحلي : ٤١٥ / ١١ ،

١٠ - الصارم المسلول ، ص ٤٥ . تفسير القرطبي ٢٠٩/١٢ ، ابن كثير ٢٧٦/٣ .

١١ - القرطبي : ٢٠٥،/١٢

١٢ - الصارم المسلول : ٤٧ ، ٤٩ ،

١٣ - ١٤ - رسالة في الرد على الرافضة ، ص ٢٥ ، ٢٦ ،

١٥ - ابن كثير: ٢٧٨,/٣

١٦ - البداية والنهاية ٩٣,/٨

١٧ - الشفا: ١١١٣/٢ وراجع أيضاً الصواعق المحرقة ٣٨٧ ، المحلي ٤١٥،/١١

١٨ - رسالة في سب الصحابة ، ٤٧ ،

١٩ - البداية والنهاية ١٣٩,/٨

٢٠ - الكفاية للخطيب البغدادي ، ٩٧ ،

٢١ - الإمامة لأبي نعيم / ٣٤٤ ،

٢٢ - نفسه / ٣٧٦ ،

٢٣ - انظر الصارم المسلول / ٥٩٢ ،

٢٤ - انظر اتحاف ذوي النجابة: محمد بن العربي التباني / ٧٥ ،

٢٥ - صرخ بعض من تولى كبر تلكم المزاعم والتهم والضلالات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- لم ينجح وأن الذي ينجح في ذلك المهدي الغائب (أي مهديهم) راجع الرسل والرسالات للأشرف / ٢١٢ ، ، ٢١٣ ،

٢٦ - صححه الألباني بطرقه وشهاده : السلسلة الصحيحة ٣٤/١١ .

منبر الشباب

لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

حكمت الحريري

"اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك ، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك ، ولا يداً تكتب في سبيلك ، فبعزيزك لا تدخلني النار". قلت : ويرحم الله عبداً قال آمينا .
هذا ما أورده الأستاذ النواوي في مقدمة كتابه "رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي".

كم كان مؤثراً في نفسي ذلك الدعاء ، وكم استوقفتني تلك الكلمات ، فالدعاء توفيق من الله الذي تتم بنعمته الصالحات ، يا رب لا تعذب لساناً يخبر عنك... ولا يداً تكتب في سبيلك .. وإن من بين الأيدي التي كتبت في سبيل الله أحد الأفراد القلائل من الدعاة الذين باعوا نفوسهم لله ولم يسترخصوها لغير دين الله عز وجل، ذلك الداعية الذي صنف كتاب "الإسلام بين العلماء والحكام" ثم كان مصيره عليه رحمة الله مصير القلة الذين كان موضوع كتابه عنهم حيث كان معجبًا ب موقفهم وقد عمل بما علم ، وما ذكره نظريًا عاشه عمليًا فهنئًا لمن شرح صدره للإسلام . فقد كتب عليه رحمة الله عن محبة كثير من العلماء العاملين وبين مواقفهم من الحكم عن سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وجعفر الصادق ، وأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، والبخاري ، والعزيز بن عبد السلام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، ولقد همت بوضع ملخص لذلك الكتاب في بعض صفحات ولكنني وجدت أن الملخص يخل بالموضوع فلا بد لمن أراد أن يعرف الحقيقة بعين اليقين ، لا بد له من الرجوع إلى الكتاب فالخلاصة لا تغنى عن الأصل.

وأحببت إذ فاتني ذلك في "البيان" - أي ذكر الملخص - ألا أدع الفرصة تفوتي لأنتحدث عن بعض المواقف التي ذكرها رحمة الله تعالى وأضيف إليها ما شاء الله لي أن أضيفه من ذلك . ومن بين الذين كتب عن محبتهم وموافقهم من الحكم ، الإمام البخاري أمير المؤمنين في الحديث ، الذي نذر حياته لجمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، وتميز صحيحة من ضعيفه ، وطاف البلاد الإسلامية لهذا الغرض.

كانت محبة الإمام البخاري على يد أمير خراسان " خالد بن أحمد الذهلي " الذي طلب منه وهو في بلده بخارى أن يحضر إليه ليسمع أولاده منه ، فأبى أن يذهب ، وقال : في بيتي يؤتى العلم . وأراد الأمير أن ينفر الناس عن السماع منه فلم يستجيبوا لذلك ، ثم أمر بنفيه من بلده إلى "خرتك" وهناك مرض ومات على أثر ذلك في ليلة عيد الفطر ، رحمه الله تعالى.

ولكن الخير لا ينقطع من أمة محمد صلى الله عليه وسلم - وأصحاب المروءة والنخوة لم ينتهوا في هذه الأمة إلى يوم القيمة بحول الله وقوته . فعندما وصل خبر محبة البخاري إلى بغداد تضجر الناس واهتزت ضمائركم وغضبوا لما نزل بالعالم الورع التقى الزاهد ، وبقي الأمر في نفس الموقف بن المتوكل أخي الخليفة المعتمد ، يتحين الفرصة المناسبة للانتقام لأمير المؤمنين في الحديث من ذلك الظالم.

ولما دخل موسم الحج وصل أمير خراسان خالد بن أحمد الذهلي إلى بغداد وما إن بلغ الموقف خبر وصوله حتى أمر باعتقاله مخفوراً ثم طرح في السجن حتى مات .

وأما سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمة الله تعالى فله مواقف سجلها تاريخ الإسلام ولا تزال موضع فخر واعتزاز لكل من شهد الله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وسلم - بالنبوة والرسالة . وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فلم تكن محبته بأيسر من غيرها وما جرى له من محن وابتلاءات يطول الحديث عنها ، وقد سارت بذلك الركبان رحمة الله تعالى ، وما وجدت عالماً من العلماء المنصفين يكتب عن المجددين إلا وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولم يكتب أحد عن الأعلام إلا وكتب عنه رحمه الله ، وقد أفردت في سيرته مصنفات عظيمة ، ولا حاجة بنا إلى ذكر شيء من سيرته أو

محنته في هذا المقال ، ولكنني أحيل على بعض ما كتبه عنه العلماء مثل : سير أعلام النبلاء للذهبي ، والبيطار في كتابه " حياة شيخ الإسلام " والندو .. والمودودي ، وابن حجر .. وغيرهم كثير .

هذا ما ذكره مصنف كتاب " الإسلام بين العلماء والحكام " رحمة الله تعالى رحمة واسعة .

وأضيف إلى تلك السير محة الإمام النووي رحمة الله تعالى وخلاصتها أن الظاهر بيبرس أراد أن يجمع المال من الناس لصد خطر التتار الزاحف على بلاد الشام ، وكان يحتاج إلى المال والعتاد لمقابلة الغزارة وصدهم ، وأخذ السلطان فتوى العلماء بتأييد عمله فكتبوا له وأفقوه بما أراد ما عدا الإمام النووي بقي متمسكاً برأيه ممتنعاً عن فتواه بهذا الأمر ، وقد كان كثير النصح للسلطان ، ولكن السلطان رد النصيحة في هذا الموضوع أي بجمع المال ، فالخطر الداهم شديد وفساد التتار وتخربيهم لبغداد وغيرها لم يكن خافياً عليهم ، وعندما وجده مصرًا على عدم فتواه استدعاه ، وهنا كان جواب النووي ، ورده على السلطان -عنيفًا و قال له :

" أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ثم مَنَ الله عليك وجعلك ملِكًا وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياضة من ذهب ، وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلي فإن أنفقت ذلك كله وبقيت مماليك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائض ، وبقيت الجواري بثيابهن ، دون الحلي أفتتاك بأخذ المال من الرعية ".

فغضب الظاهر من جواب النووي وقال له : اخرج من بلدي -أي دمشق - فخرج إلى بلده نوى بحوران التي هي مسقط رأسه ، فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا. ومن يقتدى به فأعده إلى دمشق ، فرسم برجوعه ، ولكن الشيخ امتنع ، وقال : والله لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر .

ومنذ بضعة عشر عاماً كان للشيخ محمد حسين الذهبي رحمة الله تعالى موقفاً شبيهاً بهذه المواقف ، من حيث الرجلة والتصدي بكلمة الحق وقد كلفه ذلك الموقف حياته ، وأمثال الذهبي الذين قدموا أرواحهم في سبيل الله كثُر نسأل الله أن يجعل أعمالهم خالصة لوجهه الكريم ، ولكن لم تكن الشعوب التي شهدت موقف الذهبي وغيرها في عصرنا ، لم تكن مواقفها هي مواقف الشعوب التي عاصرت محة النووي والعز بن عبد السلام وابن تيمية .

فلم تهتز ضمائرهم لإهانة هؤلاء العلماء وإيذائهم متلماً اهتزت ضمائر أولئك الناس في عهد النووي وغيرها. هذه أمثلة من تاريخنا الإسلامي العريق، ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)).

نظرة في منهج تاريخ الأدب

د. عبد الله خلف

إن الناظر في كتب تاريخ الأدب الحديثة ليعجب مما يجده فيها من أحكام يصدرها مؤلفوها على المجتمعات الإسلامية الأولى ، وما تشير إليه من شيوع مظاهر اللهو والعبث والمجون ، علاوة على ما تضمنته من مبالغات في حديثها عن الجانب السلبية في حياة الأفراد ، مما يدفع المرء إلى التساؤل بإلحاح عن مدى صحة تلك الأحكام . ولا سيما أننا نرى أولئك الدارسين يشيرون إلى أنهم

اعتمدوا في ذلك على مصادر مشهورة من كتب التراث ، قاصدين إضفاء الصفة العلمية عليها ، وإحاطتها بها من التوثيق.

وبذلك أصبحت كتب التراث بما تتضمنه من ثروة خبرية وهائلة مصدراً - لكثير من الدراسات التي شوهدت معالم التاريخ الإسلامي في جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية بسبب البعد عن المنهج العلمي في التعامل مع النصوص.

لقد تعرض تاريخنا منذ العصور الأولى ولا زال يتعرض لحملة تشويه كبيرى ، تمثلت قديماً في وضع طائفة كبيرة من الأخبار والحكايات التي تخدم أهل الأهواء على اختلاف اتجاهاتهم ، وتمثلت في العصر الحاضر في الدراسات التي استندت إلى تلك الأخبار ، ولم يعد من العسير على الذين يتبنون آراء شاذة، أو يريدون تشويه معالم الصورة المشرقة لتاريخنا أن يجدوا من الأخبار ما يسندون به وجهات نظرهم. كما أن كثيراً من الباحثين الذين لم ينطروا على نوايا سيئة وقعوا في التخليط ، ووصلوا إلى نتائج غير سليمة ، بسبب تأثرهم بدراسات الآخرين من جهة، وبسبب عدم اتباعهم منهجاً علمياً يمكنهم من الاستفادة من التراث من جهة أخرى.

ويكاد يكون من المتفق عليه أن كتب التاريخ والأدب التراثية تحتوي على عدد كبير من الأخبار والحكايات الباطلة ، وأن الذين صنفوا في هذين الموضوعين حشدوا في كتبهم ما وصل إليهم منها دون تمحیص إلا في القليل النادر. ومن أشار إلى ذلك أبو بكر بن العربي الذي حذر من روایات المؤرخين وأهل الأداب لما يتضمنه كثير منها من الاستخفاف بالسلف (١)، ويقول ابن تيمية بعدما أثنى على أهل الحديث (٢): "خلاف الأخباريين فإن كثيراً مما يسندونه عن كذاب أو مجھول، وأما ما يرسلونه فظلمات بعضها فوق بعض".

وأخذ النووي على ابن عبد البر حکایته عن الأخباريين ، لأن الغالب عليهم الإكثار والتخليط (٣).

ولم يقتصر التحذير من روایات الأخباريين على العلماء، فقد نص على هذا كثير من الأدباء. يقول الجاحظ مصوراً سهولة الكذب على الرواية وسهولة نشره (٤) : "وما هو إلا أن ولد أبو مخنف حديثاً، أو الشرقي بن القطامي، أو الكلبي ، أو ابن دأب ، أو أبو الحسن المدائني ، ثم صوره في كتاب وألقاه في الوراقين إلا رواه من لا يحصل ولا يتثبت ولا يتوقف ، وهؤلاء كلهم يتشيعون" .. ويقول أحمد أمين (٥) : "وجاء حماد وخلف الأحمر - كما سبق - وأمثالهما فعدوا من الظرافة أن يتزريدوا ، وتسابقوا في الوضع ، واستغلوا إعجاب الناس بالجديد الذي لم يسمع من قبل... فكان من ذلك ما أدركه المفضل الضبي من أن تمييز الصحيح من غير الصحيح أصبح بعد هؤلاء الكذبة المهرة عسيراً ومحلاً".

وتحدث زكي مبارك عن كتاب الأغاني مشيراً إلى خلق الأصفهاني الذي كان مسرفاً في اللذات والشهوات مما دفعه إلى الاهتمام بأخبار الخلاعة والمجون ، وإهمال الأخبار التي تصور الجوانب الجادة في حياة الأفراد والمجتمعات. ثم ذكر أن هذا الأمر أفسد كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه (٦) ، والأصفهاني نفسه الذي يعد كتابه أضخم مجموعة أخبارية في تاريخ الأدب يصرح بأن منهجه يقوم على جمع كل ما رواه الناس وتداولوه ، ولو كان كذباً ، لئلا يشذ عن الكتاب شيء مما تناقله الرواة.

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا من كثرة الأخبار الباطلة ، وما يحمله كثير منها في طياته من تشويه لمعلم التاريخ الإسلامي في مختلف جوانبه ، أو لحياة بعض الأشخاص فإنه لا بد من الاحتراز وتحكيم العقل والمنطق في قبول الأخبار أو رفضها إذا كان إسنادها غير مقبول. وهذا أمر لا مفر

للباحث منه إذا كان هدفه الوصول إلى الحقيقة ، وإنما سوف يسهم في ترسیخ الأخطاء وتشويه المعلم الصحيحة ، وسيكون خطأه أعظم من خطأ السابقين الذين كانوا يروون الأخبار عالمين بأن فيها الغث والسمين متبرئين من عهدهما ، لأنه عندما يقبل ما رواه دون تحقيق سيكون بمثابة من يرى صحة ما احتوته تلك المصنفات ، وسيجد نفسه أمام كثير من الغرائب والمتناقضات فإن قبلها جميعاً وقع في التناقض. وإن قبل بعضها ورد بعضها دون تحقيق صار صاحب هو ، وبذلك يكون قد ابتعد عن المنهج العلمي ، وقد جانباً من أهم ما يتميز به المحققون.

ولا بد للباحث من الاستعانة بالأخبار ذات الإسناد المقبول لرسم الخطوط العامة ، والمعالم الرئيسية لموضوع البحث ، لكي تكون مقياساً يستعين به على قبول غيرها من الروايات أو رفضها ، ولا يمكن للباحث الاستغناء عن كل خبر لا يصح سنه لأننا في هذه الحال سنجد حلقات كثيرة مظلمة في تاريخ الأفراد أو التاريخ العام ، ولن نجد من الأخبار ذات الإسناد المقبول ما يكفي لإضاءتها. وسبب ذلك أن العلماء والرواة السابقين لم يكونوا يولون الإسناد أهمية إلا في الحديث النبوى وما يتصل به. أما ما عدا ذلك فلم يكونوا يرون بأساساً في نقله وتناوله بدون إسناد ، أو بإسناد فيه بعض المتهمنين. ومما يدل على ذلك ما ذكر عن إبراهيم بن الجندى أنه سأله يحيى بن معين عن إبراهيم بن مناذ الشاعر ، فقال : لم يكن ثقة ولا مأموناً. قال له إبراهيم: إنما نكتب شعره وحكايات عن الخليل بن أحمد ، فقال: هذا نعم ، وأما الحديث فلست أراه له موضعأً^(٧).

وكون الخبر من ذلك النوع لا يعني القطع بعدم صحة مضمونه وليس أمامنا لكي نقرر قبوله أو رفضه إلا دراسة متنه وتحليله وتحكيم العقل فيه ومقارنته بالأخبار المقبولة.

وللنوصوص الأدبية الإبداعية من شعر ونشر أهمية كبيرة في إضاءة بعض الجوانب من حياة الأفراد أو المجتمعات ، إذا ما تمت دراستها بمعزل عما حملها من حكايات. ومن أمثلة ذلك أنه قد اشتهر بين كثير من المعاصررين أن الاختلاط والسفور كانا شائعين في مجتمع الحجاز في العصر الأموي ، وأن النساء كن ييرزن للرجال ، ويتعرضن للشعراء ليتغزلوا بهن ويجلسن معهم مجالس السمر المختلطة حتى في غيبة أوليائهن. ويستدل هؤلاء على ذلك بالقصص والحكايات الباطلة. ويزعمون أن الشعر الحجازي ، ولا سيما شعر عمر بن أبي ربيعة يدل على صحة آرائهم. بيد أن المتأمل في شعر عمر وغيره من شعراء الحجاز المعاصررين له يدل على خلاف ما توهمه أولئك الدارسون، ومن ذلك ما نجده في شعر عمر من الحديث عن مغامراته الليلية، وتسلله تحت ستار الظلام للقاء من يحب حيث يبدو من يسعى إلى ذلك اللقاء بصورة الذي يريد أن يقدم على أمر شديد الخطر ، فهو لا بد أن يكون منتبهاً شديداً الحذر، وأن يأخذ بجميع أسباب الحيطة لأن اكتشاف ذلك الأمر سوف يسبب له المتاعب ، ويعرضه لخطر عظيم، وهو لا يستطيع الوصول إلى ما يريد في النهار، ولكنه يتسلل إليه في الظلام بعد أن ينام الحي ، ويغفل الرقباء ويهجع الحراس. والأمثلة التي تبين لنا ذلك من شعره كثيرة جداً لا يتسع المقام هنا لأكثر من واحد منها ، وهو قوله في رأيته المشهورة:

مسابح شبّت بالعشاء وأنور
روح رعيان ونوم سُمَّر
وخفض عنِّي الصوت أقبلت مشية الـ حباب^(٨) وشخصي-خشية الحي-أزور^(٩)

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
وخفض عنِّي الصوت أقبلت مشية الـ حباب

إن في تصوير الشعراء لمعاييرتهم الليلية ما يكشف لنا عن إحساسهم العميق بالرقابة التي يفرضها المجتمع على الذين يريدون الخروج على أنظمته وقيمه وتقاليده ، وهذا يدل على مدى التحفظ الذي

كان يسود المجتمع، ويؤدي بما كان يهيمن على العلاقات بين الرجال والنساء من الجد والالتزام بالحدود الشرعية.

ولعل في هذا ما يدل بوضوح على أن النصوص الأدبية يمكن أن تساعد على الوصول إلى الحقيقة التي ينشدها الباحث في تاريخ الأدب.

وهناك خطأ آخر وقع فيه كثير من المعاصرين، وأدى إلى إصدارهم أحكاماً ، خاطئة في حق المجتمعات الإسلامية الأولى، وهو نقص الاستقراء، والتعميم الخاطئ حيث يعتمد الباحث على عدد قليل من المصادر ويهمل غيرها ، وإذا وجد بضعة أخبار حول أديب حكم من خلالها على حياته، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتنقيب عن غيرها، وقد يحكم على مجتمع أو عصر ب كامله من خلال ما يقرؤه عن عدد قليل من الناس فيقع في التعميم الخاطئ. وهذا الأمر قد يكون بسبب ضعف همة الباحث ورغبته في الوصول إلى نتائج سريعة ، ولكنه ربما حدث بسبب سوء نيته وحبه للترويج لمظاهر أو أفكار منحرفة عن طريق ادعاء أنها كانت شائعة عند أسلافنا ، ولا مبرر لرفضها وإنكارها في العصر الحاضر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الاهتمام بتحقيق الأخبار والاستقصاء والاستفادة من النصوص الأدبية لا يتنافي مع محاولات التنظير التي يهتم بها بعض الدارسين ، ولا مع ما يقومون به من دراسة وتفسير وتحليل لبعض الظواهر الأدبية ، إذ أن ذلك جزء مهم من الدراسات الأدبية الحديثة. ولكن تلك الدراسات لن تكون ذات قيمة علمية ما لم يكن الأساس النصوصي الذي بنيت عليه سليماً مقبولاً.

الهوامش :

- ١ - العواصم من القواسم / ٢٦٠
- ٢ - مجموع الفتاوى ٤٧٩/٢٧ .
- ٣ - الإعلان بالتوبیخ لمن ذم التاريخ للسخاوي / ١١٦،
- ٤ - كتاب البغال المطبوع ضمن رسائل الجاحظ ٢٢٦-٢٢٥/٢
- ٥ - ضحى الإسلام ٣١٥/٢ - ٣١٦،
- ٦ - أبو الفرج الأصفهاني وكتابه الأغاني لمحمد عبد الجواد الأصممي / ١٧٩ - ١٨٧،
- ٧ - انظر الأغاني ١٨ / ٢٠٨،
- ٨-الباب : الحياة.
- ٩ - الأزور: المائل أو الناظر بمؤخر عينه.

قاموا قياماً... ثم افزعوا قصيدة لقسطنطين بن يعمر الإيادي

عبد الحميد إبراهيم

لقسطنطين بن يعمر الإيادي شاعر قديم جاهلي مقل، ولا يعرف له إلا هذه القصيدة، وكانت قبيلاته إياض ينزلون سواد العراق، وهي منطقة شمال شرق الجزيرة العربية الآن، وكان لقسطنطين كاتباً في ديوان كسرى ، ولما علم أن كسرى ينوي غزو قبيلته إياض كتب إليهم بهذه القصيدة يحذرهم ويستهضهم ، فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسانه.

- ١- أبلغ إيماداً وخلل(١) في سراتهم إني أرى الرأي -إن لم أعص- قد نصعوا
- ٢- يا لهف نفسي إذا كانت أموركم شئ ، وأحكام أمر الناس فاجتمعا
- ٣- لا تخافون قوماً لا أبالكم أمسوا إليكم كأمثال الذئب(٢) سرعا
- ٤- فهم سراع إليكم؛ بين ملقط شوكاً، وأخر يجني الصاب والسلعا(٣)
- ٥- لا الحرج(٤) يشغلهم بل لا يرون لهم
- ٦- وأنتم تحرثون الأرض عن سفه
- ٧- وتلبسون ثياب الأمان ضاحيةً(٦)
- ٨- مالى أراكم نياماً في بُلْهَنِيَّةً(٧)
- ٩- فاشفوا غليلي برأي(٨) منكم حصد
- ١٠- صونوا جيادكم واجلوها(٩) سيفكم
- ١١- لا انثمرروا المال للأعداء؛ إنهم إن يظهروا يحتوونكم والتلاد معا(١٠)
- ١٢- هيهات لا مال للأعداء؛ إنهم إن يظهروا يحتوونكم والتلاد معا
- ١٣- والله ما انفك الأموال مذ أبد لأهلها (إن أصيروا مرة) تبعا
- ١٤- قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا، قد ينال الأمن من فزعا
- ١٥- وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلاعا
- ١٦- لا مترباً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عضَّ مكروه به خشعا
- ١٧- ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره(١١) يكون متبعاً طوراً ومتبعا
- ١٨- حتى استمرت على شزر مريرته(١٢) مستحكم الرأي لا قحاماً ولا ضرعا
- ١٩- وليس يشغلهم مال يثمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا(١٣)
- ٢٠- لقد بذلت لكم نصحي بلا دخل(١٤) فاستيقظوا ، إن خير العلم ما نفعا

شرح القصيدة

بلغ ما سأقول لك قبيلة إيد ، وachsen أشرافهم ورؤساهem بهذا التبليغ ، فقد أصبح الأمر واضحاً لا يحتاج إلى انتظار، ما أشد تلهفي وتوجعي إذا واجهتم التهديد والخطر بالفرقة، واجتماع الناس عليكم بالتفرق والتشتت !

ال القوم (الفرس) قد احتشدوا لكم عن آخرهم ينونون غزوكم ، وهم مثل الجراد في كثرتهم ، ألا تخشون عاقبة غزوهم لكم؟!

هاهم يسارعون إليكم ، كل منهم يتجهز ويعد العدة لا ستئصالكم. ولم تشغلكم عنكم دنيا من زراعة وتجارة ، بل تركوا كل أعمالهم وشواغلهم وتفرغوا لاستباحة ساحتكم وقهركم، هذا وأنتم مع كل هذه الأخطار المحدقة بكم لا زلتمن ضعف عقولكم مشغولين بزراعتكم حرثصين على عمل هنا وعمل هناك ، آمنين حين يخاف الناس ، مستكينين حيث ينظر الناس للخطر المحقق ، لا تحركون ساكناً مع أن الخطر على مرأى البصر منكم قد تجهز واستعد لإبادتكم.

ما هذا الأمان والدعة والخمول الذي أراكم نائمين فيه ، في وقت تدق حولكم أجراس الخطر وتشتعل حولكم النيران ، وقد أدنت ساعة الحرب التي لا مرد لها؟! فأجمعوا أمركم على رأي قوي واحد يشفى الفؤاد المترomic الذي طال انتظاره للنصر.

استعدوا بكل أنواع الاستعداد وتعبيروا بكل أشكال التعبئة؛ من الاعتناء بالخيل وتدريبها، وتجهيز عدة الحرب من سيف وقصي ، واتركوا صرف الوقت في تثمير المال جانباً الآن ، لأن الأعداء إن

يتغلبوا عليكم فلن تنفعكم هذه الأموال التي ستكونون معها ملكاً للمتغلب . وأي نفع للزرع والإبل الذي تصرفون إليه همكم الآن إن ضربت عليكم الذلة والمسكنا؟ المال تبع لأصحابه فمن يقهر الناس يسخرهم ومالهم لمنفعته.

هيا هبوا هبة رجل واحد فالامر لا يحتمل التأجيل أو التناقض ، ففن لا يحس بالفزع لن يعرف الأمان . واجتمعوا على قائد مقدم بصير بالحرب قادر على حمل تبعاتها ، لا شخصاً قتل رجولته الرخاء ، واعتاد خفض العيش ، واستنام إلى الدنيا وملذاتها ، وليس رجلاً ضعيف النفس ، ينهار لأول مكروره يعترضه .

أسندوا أمركم لرجل عرك الأمور ، وحنكته التجارب ، وتقلبت عليه الأيام بحلوها ومرها حتى اشتدا أسره ، واستحكمت إرادته ، لا هرماً ولا ضعيفاً، ولا يشتعل بتثمير المال وحيازته وتكديسه ، ولا يهتم بأولاده يبحث لهم عن تأمين المستقبل المادي ويترك الاهتمام بأمر الرعية .
هذا نصحي قدمته لكم مخلصاً ، فأفicianوا من غفلتكم ولا تكتفوا بسماع هذه النصيحة أو حفظها دون العمل بها ، فإنه لا خير في علم لا ينتفع به .

على هامش القصيدة

هذه القصيدة خطبة حماسية ، تعلو نبراتها وتهبط وتتراحب موجاتها وتنقبض بقدر ما يسمح بذلك "البحر البسيط" ، جملها مباشرة واضحة ، وعناصر الإثارة فيها نابعة من النظر إلى مشكلة وجود الجماعة برمتها ، وهذا أبلغ في التأثير .

وبما أنها من الوضوح بما لا يجعلنا بحاجة إلى الوقوف كثيراً عند التحليل والشرح؛ فإن من المناسب إلى أن نشير على هامشها بإشارات عدة تلقي الضوء على دلالتها المطلقة من عقال الحادثة التاريخية المحدودة .

١ - أول ما يحذر منه الشاعر، ويعبر عنه تخوفه وقلقه الشديد منه هو داء الفرقة ، وهذا الداء الذي ينجم عنه تقديم المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، ويكون الباعث على تجاهل آثاره المدمرة هو قصر النظر وعدم التفكير في العواقب .

٢ - الاستغلال بالكسب واستغرافه للجهود مجتمعة - دون تفكير بجانب الوقاية من المخاطر المتوقعة ، وحماية هذه المكاسب من العدو الطامع المتربص بها -أخذ من الشاعر جهداً غير قليل في التحذير منه ..

٣ - القضية الثالثة قضية القيادة والريادة ومواصفاتها. فقد أبرز الشاعر الصفات العامة للقائد المطلوب بأن يكون :

أ - واسع الأفق كريم النفس .
ب - خبير بأمور الحرب .
ج - بعيد عن الترف .

د - صبور قوي الإرادة عند الملمات .

ه - عنده خبرة وتجربة ولم يقفز إلى القيادة قفزاً .

و - غير هرم ولا ضعيف الشخصية .

ز - لا يسخر منصبه لمصلحته الخاصة ومصلحة عائلته .

هذه القضايا الثلاث ، بل هذه الأمراض الثلاثة: الفرقة ، وتقديم الأقل أهمية على المهم (الخلل في ترتيب الأولويات أو إهمال بعضها) ، واستغلال المناصب العامة من أجل الأغراض الخاصة ؛ لم

تزل أمراضاً قديمة - حديثة ، عميقه الجنور بين المجتمعات البشرية ، وعلى الرغم أن كثيراً من الأمم قد وجدت الحلول التي تحد من أخطار هذه الأمراض (ولا نقول : اقتلعتها من جذورها) إلا أننا - نحن العرب من بين الأمم - لم نهتد إلى حل يجنبنا الوييلات التي عانيناها من الفرقه والجهل والطغيان والاستبداد.

إن قبيلة إياد التي يستهضها الشاعر بقصيدته تشكل في عرف تلك الأيام الدولة بالنسبة لفرد ، وهذه الدولة الصغيرة التي كان وجودها مهدداً بسلط كسرى وجبروته استطاعت أن تثبت في وجهه وتهزمه عندما تنبهت إلى عوامل القوة الكامنة ، وفزعت إلى قوتها الذاتية وطاقاتها المذخورة. ولا أريد أن أستغل حرب "ذي قار" التي كانت جواباً عملياً على التحذير في هذه القصيدة من أجل الإشادة بالنعرة القومية والعصبية العنصرية التي لجأ إليها في يوم من الأيام أصحاب الفكر القومي الذي قدم مقابل الفكر الإسلامي؛ بل الغرض هو المقارنة بين حالتين تاريخيتين واستخلاص الدرس والعبرة من أولاً هما للثانية لوجود تشابه بينهما..

ف "إياد" كانت مهددة بقوة خارجية ، والعرب الآن مهددون بقوى خارجية ، وإياد كانت أثناء ذلك التهديد غافلة عما يحاك لها. ونحن فيما غفلة شديدة عما يحاك ويدبر لنا ، وكان لقسطنطين بن يعمر هو المحذر من ذلك الأمر المنذر بالخطر ، وأهل العلم والمفكرون هماليوم الذين يقومون بهذه المهمة. واستهلاك الجهود في الزراعة والتجارة وتنمير الأموال هو ما يجب أن يوضع في مكانه الصحيح وأن يضاف إليه جهد آخر هو جهد الدفاع الصحيح والحماية لهذه الجهود والأموال التي يحتال علينا العدو في اقتصاصها بشتى الخدع والأساليب ، فالآموال التي تبقى بعد استهلاك الكثير منها في الفسق والفجور والكماليات والمشاريع الديكورية ، والمظاهر الخادعة وفي غير ذلك مما لا فائدة منه على المدى الطويل؛ تستهلك عن طريق دعم مصانع الأسلحة الغربية التي تصنع آلات الدمار والفناء للبشرية المعدبة بسيطرة مفاهيم هذه الحضارة الأوروبية المتغطرسة.

يبدو أننا أنزلقنا من حيث لا نشعر إلى الحديث عن السياسة ، ونحن لا نريد ذلك ، ولكن إيحاءات هذه القصيدة دفعتنا إلى هذا الاستطراد الوبييل دفعاً.

وكلمةأخيرة : إذا نحن جردنا تاريخنا من كل ما له علاقة بالإسلام منذ موقعة "ذي قار" إلى اليوم ، واستبعدنا كل اللمعات المضيئة من ذلك التاريخ فماذا يبقى من أشياء صالحة للاعتزاز بها؟! سوف نرى أن أحوالنا ما زالت في تراجع منذ ذلك الوقت إلى الآن حيث أحاطت كل مجموعة من القبائل والأوزاع بسياج قرئت عليه طلاسم خرافية سموها "القانون الدولي" وحفظت في أقبية لندن وباريس ومبني عصبة الأمم ومن بعدها هيئة الأمم! ورضينا نحن بهذه الخطوط الوهمية المقرولة عليها تلك التهاويل الخرافية! وهاهي دول الغرب الصليبي ، (والاتحاد السوفييتي الصديق وبلدان المنظومة الاشتراكية) كلها شارك في تجديد العهد على إغاظتنا وإنزال الآلام في قلوبنا - بمشاركتها في جلب موجات من اليهود الجدد إلى فلسطين بعد كل مساهماتها الماضية - على الرغم من تعززنا بأسمائها ، وتمطقنا بذكرها في الحقيقة السوداء الماضية؛ فلا ندرى ماذا نفعل ، ولا نقف وقفه صحيحة لا كال المسلمين الذين يأبى عليهم دينهم قبول الضيم ، والرضا بنتائج الكيد والخداع؛ بل ولا كعرب الجاهلية الذين استهضوا فنهضوا ، واستفزوا ففزعوا !! فهل إلى خروج من سبيل؟! نرجو ذلك.

الهوامش :

- 1 - خلل في سراتهم : خص أشرافهم بالتبليغ والتحذير .
نصع الرأى: بان ووضـح

- ٢ - الدّبّي : صغار الجراد.
- ٣ - يجني الصاب والسلعا: الصاب والسلع : نوعان من الشجر ويجني الصاب والسلعا كنایة عن إضمار الشر وإعداد السلاح .
- ٤ - الحرث : الزراعة .
- بِيَضْتُكُمْ : أرضكم وأصلكم.
- ٥ - المعتمل : موضع العمل .
- المزدرع : موضع الزرع.
- ٦ - ضاحية: ظاهرة .
- لا تفزعون : لا تنفرتون ، ولا تتهيئون.
- ٧ - البلينية : رخاء العيش ولينه.
- ٨ - الرأي الحصد والمستحصد: الرأي المبرم القوي.
- ٩ - واجلوا سيفوكم : اشحذوها وأعدوا لقتال.
- ١٠- جدع الأنف : قطعه ، وهو كنایة عن الذل والخضوع.
- ١١- حلب الدهر أشطره : جرّب الدهر وعركته الأيام.
- ١٢ - استمرت مريرته : اشتدت قوتها .
- الشزر: شدة القتل .
- القحم : الشيخ الفاني.
- الضرع : الضعيف.
- ١٣ - الرّفع : جمع رفة.
- ١٤ بلا دخل : بلا غشن ، بل نصحت لكم مخلصاً في النصح.

شعر الحرية

محمد نموس

أخبرنا أستاذنا يوماً عن شيء يدعى الحرية
فسألت الأستاذ بلهفة أن يتكلم بالعربية
ما الحرية؟!

هل هي مصطلح يوناني عن بعض الحقائق الزمنية؟!
أم أشياء نستوردها أو مصنوعات وطنية؟!
فأجاب معلمنا حزناً وانساب الدموع بعفوية
قد أنسوكم كل التاريخ وكل القيم العلوية
أسفي أن تخرج أجيال لا تفهم معنى الحرية
لا تملك سيفاً أو قلماً ، لا تحمل فكراً وهوية

وعلمت بموت مدرستنا في الزنزانات الفردية

ونذرت لئن أحياي الله وكانت في العمر بقية
لأجوب الأرض بأكملها بحثاً عن معنى الحرية
وقصدت نوادي عروبتنا أسألهم أين الحرية ؟
فتواروا عن بصرى هلعاً وكان قنابل ذرية
ستفجر فوق رءوسهم وتبيد جميع البشرية
فDNA رجل يبدو أن ذاق عذاب الشرط السرية
لا تسأل عن هذا أبداً أحرف كلماتك شوكية
هذا رجس ، هذا شرك في دين دعاه الوطنية
ارحل؛ فتراب مدینتنا يحوي آذاناً مخفية
تسمع مالم يحك أبداً وترى قصصاً بوليسية
ويكون المجرم حضرتكم والخائن حامي الشرعية
ستبوء بكل مؤامرة وبقلب نظام الثورية
وببيع روابي بلدتنا يوم الحرب التحريرية
وبأشياء لا تعرفها وخيانات للقومية
وتتساق إلى ساحات الموت عميلاً للصهيونية
واختتم النصح بقولته وبلهجته التحذيرية
لم أسمع شيئاً لم أركم ما كنا نذكر حرية
هل تفهم ؟ عندي أطفال كز غاب الطير البرية

وسألت جموع المغتربين أناشدكم ما الحرية ؟
فأجابوا بصوت قد دوى : فَجَرَتْ هُوماً منسية
لو ذقاها ما هاجرنا وتركنا الشمس الشرقية
بل طالعنا معلومات في المخطوطات الأثرية
أن الحرية أزهار ولها رائحة عطرية
كانت تنمو بمدینتنا وتفوح على الإنسانية
ترك الحراس رعيتها فرعتها الحمر الوحشية

وسألت أديباً من بلدي هل تعرف معنى الحرية ؟.
فأجاب بهاءات حرّى : لا تسألنا ، نحن رعية !
ووقفت بمحراب التاريخ وقلت له ما الحرية ؟
فأجاب بصوت مهود يشكو من وقع الهمجية
الحرية :

أن يحيا الناس كما شاء الرحمن لهم بالأحكام الربانية
وفق القرآن ووفق الشّرع ووفق السنن النبوية
لا وفق قوانين الطغيان وتشريعات أرضية
وضعت كي تحمي أشخاصاً تقفو الأهواء الشخصية
الحرية :

ليست نصباً تذكارياً يغسل في الذكرى المئوية
الحرية لا تستجدى من سوق النقد الدولية
الحرية لا تمنحها هيئات البر الخيرية
الحرية نبت ينمو بدماء حرّى وذكية
الحرية تنزع نزعاً
تؤخذ قسراً
تبني صرحاً

يعلو بسهام ورماح ورجال عشقوا الحرية
إن تغفل عن سيفك يوماً فلقد ودعت الحرية .

ذكريات من مواسم الهجرة

د. مصطفى السيد

- ١ -

ما كنت أحسب - وأنا أضع عصا الترحال - في رحلة من مواسم الهجرة نحو الخليج ، في مطالع التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري ما كنت أحسب أنني سأستقر مجاوراً لمرابع (تميم) وفي مدينة من مدن القصيم (١)، وما دار بخليدي أن للتاريخ حضوراً في (نجد) يتجاوز الكتب الراقة فوق رفوف المكتبات ، أو المحفوظات الرسمية في صدور الرجال.

إن هذا الجحود لعقرية المكان وما أكنته (الثبات) كأنه أمر متواتر ، وكأن الأدباء توافقوا به ، فاضطربت أقوالهم في مواطن الأيام ومواضع الوديان وأماكن المياه في مهبط إلهام الشعر العربي في (نجد) فتقاذفوا وديانها بين جنوب وشمال ، ويمان وشام .

إن (عزرا باوند) (٢) (١٨٨٥-١٩٧٢) قد ذرع بحر (إيجه) جيئة وذهاباً، ويستلهم كل حجر ومدر ويستنطق كل واد وجبل عن أخبار القوم في الإغريق ، ولقيت اليونان من عشاق حضارتها ما لم تبلغ نجد مده ولا نصيفه .

نجد في الأدب العربي معادل موضوعي لليونان في الأدب الغربية فهي خزانة الأدب وعائد(٣)الهوى ، استضاءت بنور الوحي ، ثم كبت كبورة كأداء - الردة - ثم ثبتت تخزن في وعيها دواوين الفصاحة وتراث الأيام ، فلم تهن اللغة ولم يغب الشعر ، بل أطل جذعاً فوق منابر الشام والعراقين وخراسان ومصر ، مفعماً بالقوة مترعاً بالمروعة، لم تزور عنه (حدثة) قصور الشام ، ولم تقشه بلاد الرافدين فلم يلق جحوداً ولا كنوداً كالذي يقع به الآن.

- ٢ -

قاتل الله شيطان الشعر ، فقد استهدفت بحديثي أرض تميم ، وما رميته إلى استنطاق كل حجر ومدر في نجد ، فلذلك الأمر أهله ، لقد أوسعوني النوى شسوعاً ، وقدفت بي المطامع لأفتح عيني حين أفتحها في قلب نجد ، دار الزمان دورته ، وعادت نجد مهجراً ومهاجراً ، تؤمها رحلة الشتاء والصيف .

من القاهرة وبيروت إلى (هجرة) (٤) تمثلت في بضعة بيوت ، إنها مأساة ، فزعت منها إلى مملكة الخيال لأجده جحافل الواقع ، لقد أسبلت عيناي معاً ، وتلفت القلب إلى قريتي في البقاع والأشجار التي اصطفت على مداخلها كأنها حرس شرف.

كيف الشجيرات التي على طريق البلد؟

طويلة أم انحنت حزينة في كمد؟

ترورها بلايل من الشمال تغتدي

أم أنها عارية الأعراف في توجد؟

أية عقيرية للشاعر الجاهلي التي جعلته يتجاوز الفناء المفروض على الأرض إلى البناء الذي أقامه في عالم الكلمة ، لقد وجد في (أبيات) القصيدة عوضاً عن (الأبيات) التي جدت يد الفناء في هدمها ، حتى باتت مسكنة بعوبل الريح ، مقطونة برماد التذكر ، ليت نقادنا يخبروننا عن الوشائج بين بيت الشعر وبيت الشعر ، الذي لم تطق ميسون بنت بحد الكلبية أن تغادره عندما انطلقت بهذا الحوار الداخلي :

لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف

كل هذا الحوار يقول إن الوطن ليس شملة يسهل خلعها كما لا يصعب ارتداء غيرها.

في تلك (الهجرة) قرأت كتاباً لحسن عبد الله القرشي عن عنترة لأقف من خلاله على المعالم الخفية للمكان ، لم يكن ذاك اختياراً ، بل كان الكتاب الوحيد الموجود في مكتبة المدرسة عن الأدب الجاهلي ، ولكن لحسن الحظ فإن (نجد آل الشيخ) قد استهوتنـي أكثر من نجد الجاهلـية ، لقد لفت نظري تغلغل فكر الشيخ محمد بن عبد الوهـاب وحضوره على كافة المستويـات العـوام والمـتعلـمين ، ولا تـكـاد تـجـد لهم ثـقـافة غـيرـه في مـكتـبة مـطـوعـ الـهـجـرـة ، وجـدتـ فيها طـائـفة صـالـحةـ منـ الكـتبـ : زـادـ المـعـادـ ، الـبـداـيةـ وـالـنـهاـيـةـ ، كـتبـ آلـ الشـيـخـ ، اـرـتـحـلـتـ بـخـيـالـيـ إـلـىـ بـلـدـيـ لـأـقـارـنـ بـيـنـ مـكـتـبـةـ إـمـامـ المسـجـدـ فيـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ وـمـثـيـلـاتـهـ عـنـدـنـاـ حـيـثـ تـجـدـ غالـباـ (مولـدـ العـرـوـسـ) وـ(ـدـلـائـلـ الـخـيـرـاتـ) وـكـتبـ تـفـسـيرـ الـأـحـلـامـ ، وـبـقـيـةـ الـمـخـدـراتـ الـفـكـرـيـةـ مـنـ مـصـنـفـاتـ أـهـلـ التـصـوـفـ.

- ٣ -

كنت ملول الطبع ولا سيما إذا أكرهت على جلاس لا يفيدون علمًا ، ولا ينشرون من التاريخ عبراً ، هذه النماذج البشرية التي لا نجد في كلماتها إلا لكمات للحياة الجادة ، يجرجر أحدهم عمره في سوح العجز ، يموت أنسى ، ويقضى كمداً إن خسر بعض دريمات في صفة عقدها ، أو وقعة اقتصادية شهدـها ، ولكن خسارة عمره لم ترفع منه رأساً ، ولم تعل صوتـاً ، وأنـي يرفع رأسـهـ وـهـوـ لمـيـتعـهـ إـلـاـ فـرـاغـ جـيـوبـهـ، وـلـمـ يـدـرـ بـخـلـدـهـ أـنـ فيـ رـأـسـهـ ، بلـ فـيـ قـلـبـهـ أـوـ عـيـةـ بـمـلـئـهـ يـتـمـيزـ الـبـشـرـ وـيـقـاضـلـ الـخـلـقـ ، لـأـشـدـ مـاـ تـأـلمـتـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ يـصـرـفـونـ أـعـمـارـهـمـ فـيـ هـرـوـبـ منـظـمـ ، وـلـأـتـخلـ عـلـيـهـمـ ذـاـكـرـةـ العـجـزـ باـسـمـ مـهـذـبـ لـهـذـاـ الفـرـارـ ، وـمـاـ أـكـثـرـ الـأـسـمـاءـ (ـالـمـرـفـوـعـةـ) وـ(ـالـمـسـمـيـاتـ) (ـالـمـخـفـوـضـةـ).

وـمـنـ فـضـلـ اللـهـ عـلـيـ أـنـ اـنـتـقـلـتـ بـعـدـ تـلـكـ الـقـرـيـةـ (ـالـتـيـ لـيـسـ بـهـ أـنـيـسـ إـلـاـ الـيـعـافـيـرـ وـإـلـاـ الـعـيـسـ)ـ إـلـىـ مـاءـ لـتـمـيمـ، إـلـىـ وـادـيـ الرـسـ، فـأـرـشـفـنـاـ عـلـىـ ظـمـاـ زـلـالـاـ، أـسـرـتـنـيـ حـلـوةـ ذـاـكـ المـاءـ، وـكـثـيرـاـ مـاـ اـسـتـحـضـرـتـ وـفـاءـ السـمـوـأـلـ وـاسـتـرـجـعـتـ كـرـمـ حـاتـمـ ، بلـ إـنـ صـاحـبـ المـاءـ تـجاـوزـ بـسـمـوـ إـلـاسـلامـ وـشـعـبـ الـإـيمـانـ هـذـهـ الرـمـوزـ الـجـاهـلـيـةـ ، وـصـدـقـ رـسـوـلـ اللـهـ حـصـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمــ الـقـائـلـ:ـ"ـخـيـارـكـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ خـيـارـكـ فـيـ إـلـاسـلامـ إـذـاـ فـقـهـواـ"ـ، وـلـمـ يـكـنـ المـاءـ الـتـمـيـمـيـ فـيـ جـوـ نـجـدـ الـلـاـهـ بـيـزـيلـ جـفـافـ الـفـمـ فـحـسـبـ بـلـ يـزـيلـ أـيـضـاـ جـفـاءـ الـقـلـبـ ، وـمـاـ أـنـ تـضـيـءـ أـنـوارـ الـحـدـيـثـ حـتـىـ أـشـعـرـ أـنـاـ فـيـ غـيـرـ زـمانـاـ وـخـارـجـ مـكـانـاـ

نستقتي ابن منظور ، ونراجع (المغني) ولا يحسم الجدل إلا (بالفتوى) ولا نغيب عن العصر أو يغيب عنا حول الماء الندى والخلق تمثل بفتية أقصوا الدنيا وإن لم تقصهم ، وفارقوها وإن لم تبرح لهم مغازلة وإليهم متشففة.

- ٤ -

كان صاحب الماء يطربه الحديث ، ويعجبه هذا المعرض التاريخي الدائم ، قناة للتواصل ، يسع مرتدى هذا الماء بحلمه ويغضي عن بعض التجاوزات بابتسامة طبعت على شفتيه ، وكان الطعام والإكرام أقل ما يجده الناس في هذا المورد التميمي ، وإذا ذكر أحد الحاضرين حاجة إلى مال أو افتقار إلى جاه - أسر صاحب الماء ذلك في نفسه ولم يبده - ليندفع بعد ذلك بسرور غامر يسد الخلة ويستشفع لأصحاب الحاجات.

لقد تواضع شيخ تميم، الأحنف بن قيس واصفاً نفسه بالتحالم ليقر لقيس بن عاصم بالحلم ولم أمر في أصحابنا التميمي - على ما فيه من الشمائل - أظهر من التواضع وحرضاً نادراً على كتمان معروفة وإظهاره عيوب نفسه ، وما إن يسمع من أحد المختلفين إلى مجلسه ، حديثاً عن مسلم يخرج بماله أو نفسه ثم لا يعود بشيء من ذلك إلا وتجده يغالب دموعه متسائلاً عن مدى استحقاقنا لهوية الإنسان بله الإسلام ، ثم يردد (الله يرحم الحال).

ولئن فارقنا هذا الماء فهو لم يفارقنا ، وعندما يرتد البصر حسيراً ، يتلفت القلب ، ويسعف العقل باستحضار شريط الأطلال ليبدأ الحوار الداخلي إذا تعذر الحديث الخارجي.

- ٥ -

لم تكن هذه الكلمات انعكاساً لكل ما انطبع على صفات المرايا النفسية ، بل هي بعض الوفاء وأنى لم تلتلي أن يؤدي حقاً لأقوام درست في (مجالسهم) أبجدية (الفالح) ، وكان ممن حملت معي بعد النأي والبعد صوتاً قرآنياً يتغنى بالمصحف ويحبر الآي تحبيراً .

ومن تمام الرواية ، أن رواد الماء التميمي لم يتفرقوا قبل تلاوة كفارة المجلس.
«سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك» .

ما أجمل الصحراء التي تمضي فيها القوافل
وتتللى الصلوات ، وتساق المحامل ،
فاسجد على رمالها المحرقه
واحرق الجبين حتى يبقى عليه الأثر.

محمد إقبال

الهوامش :

- ١ - يقصد الكاتب مدينة (الرس) من مدن القصيم في المملكة العربية السعودية.
- ٢ - شاعر غربي مشهور.
- ٣ - عتائد : مفرداتها عديدة ، صندوق تضع فيه المرأة ما يعز عليها من طيب وبخور.
- ٤ - بيوت قليلة في البدية.

شئون العالم الإسلامي ومشكلاته مشكلة الفرات من نتائج العصبية القومية

أبلت الصحف والمجلات العربية بلاءً حسناً في عرض قضية "نقص المياه" و "حرب المياه". وقدمت تحليلات كثيرة حول هذا الموضوع الذي أبرزته واهتمت به الصحافة العالمية. وأشارت إلى أن الحرب المقبلة التي قد تنشغل بها الدول العربية فيما بينها ، أو فيما بينها وبين جيرانها في المستقبل قد تكون حروباً على المياه ، وأن تركيا تريد أن تسخر موضوع المياه لتحقيق أغراض سياسية واستراتيجية في المنطقة.

وقدمت هذه الصحف بعض الأرقام الإحصائية التي أصدرتها دول حوض الفرات بما يمكن أن يكون تصوراً أولياً عن نسبة استحقاق كل دولة من ماء الفرات ، وعما تنوی أن تحتجزه تركيا من مائه، وما سمحت بمروره، وعن مستقبل توزيع الحصص. وهناك ملاحظات حول المعلومات والتحليلات التي تضمنتها هذه الصحف ، ومن ذلك :

١ - كان هذا الموضوع متشابهاً حيث عرض ، وكانت أكثر الصحف تنقل عن بعضها الأرقام والنتائج المتوقعة ، وليس من اختلاف إلا في التلاعيب في بعض الجمل والألفاظ الرابطة، والتي يظن المحررون بسذاجة أنهم - بمهارتهم وحنكتهم - يستطيعون أن يقنعوا القراء أنهم يحقّقون شيئاً لمطبوعاتهم؛ سواء على مستوى أهمية القضية وما تمثله في الواقع ؛ أو على مستوى تحليلها.

٢ - كل التحليلات العربية تقريباً كانت تتكئ على التحليلات الغربية ونظرتها المسبقة المغرضة إلى المنطقة ، أي تناول القضية وكأنها بنت الواقع الحالي دون ربطها بتراثها التاريخية والجغرافية ، والنظر إلى أن الحالة الراهنة هي حالة مطلقة لن يدركها التبديل ولا التحويل. وللتوسيح ذلك نقول :

إن الأوربيين - مؤرخين، وصحفيين، ومفكرين - لا ينظرون إلى العالم العربي كوحدة فكرية وتاريخية بينها من الروابط ما بين أقاليم فرنسا ، أو بريطانيا ، أو إيطاليا ، أو غيرها؟ بل ينظرون إلى العرب كما يحبون أن يروهم : منقسمين على أنفسهم ، بينهم من الخلافات العميقية التي يستحيل حلها، ولا شيء يجمعهم، وأن هذه الحدود التي تفصلهم هي حدود أزلية أبدية! وكأنهم ليسوا هم الذين رسموا هذه الحدود على الورق أولاً ، ثم نفذت على الأرض ثانية ، لاعكس - كما هو الطبيعي في كل البلاد ، ما عدا تلك التي فتحها المسلمون ؛ أو دخلها وانتشر فيها الإسلام!

يتجاهل هؤلاء الأوربيون في تحليلاتهم أن الحدود بين العراق والشام، وبينهما وبين تركيا بل الحدود بين دول المشرق العربي جميعها؛ لم تبرز إلا بعد اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ وأنها لم تنفذ على هيئتها الحالية تقريباً إلا بعد عام ١٩٢٠.

إن النظرة التي ينظر بها الأوربيون إلى هذه البلاد هي أنها بلاد كانت مشرعة الأبواب على مصاريعها ، تدخلها الموجات البشرية الغازية من جهاتها الأربع. وأنهم إذا حدوا لكل رقعة حدوداً ، ورسموا لها مجالاً لا تتعداه؛ فقد أسدوا إليها معروفاً لا ينبغي أن ينكر أو ينسى.

ولكن ، هل بقيت كلمة حول قضية المياه لم تطرح؟ أو شيء غامض لم يكشف عنه الحجاب؟. والجواب : نعم ، هناك مسألة يملئها التصور القائم على أساس الإسلام ، وتتهرّب الصحافة العربية التي تسير على هدى الصحافة الغربية من تناولها من هذه الزاوية. سواء كان هذا التهرّب جهلاً أو تجاهلاً؛ فالنتيجة واحدة.

هذه المسألة هي مسألة القومية التي استوردها - عرباً وأتراكاً - من الغرب ، فنفخت في أنوفنا ، وأعمتنا عن رؤية الحقائق كما هي ، وجعلتنا نتعصب للجنس على حساب الحق ، ونبذ الفوارق العنصرية ، ونخفي ما نتفق عليه ، والذي هو مبرر عزتنا ، وعنوان حضارتنا - وهو الإسلام الذي خرجنا بفضله من الظلمات إلى النور ، وقدمنا عن طريقه إلى العالم شيئاً نعتز به ونفخر ، والذي قد لا تزول كراهية الغرب بنا للعرب وغيرهم من أمم الشرق إذا تخلوا عنه؛ ولكن ستكون كراهيتهم لهم ما داموا يعذرون به ولا يرضون عنه بدلاً أكثر وأكبر.

إن القضايا الاقتصادية التي تؤثر على العلاقات بين الشعوب لا تعالج معالجة معزولة عن القضايا النفسية والتاريخية التي توجه هذه الشعوب ، ونعني بذلك هنا قضايا العقائد والمبادئ. هناك عقائد ومبادئ تتصارع على هذه الرقعة من العالم ، هناك قوى ظاهرة تتحرك تحت الشمس ، وقوى خفية تتحرك في الظلام ، والقوى الظاهرة والخفية لم تتوقف يوماً عن محاولات العبث في أمن هذه المنطقة المهمة من العالم ، ولا تريد لها أن تهداً أو تستقر.

لقد نجح الاستعمار وأعوانه أن يصدروا إلينا "النظرية القومية" ، ويغرسوا العنصرية التي ألوت بمجد العرب والترك ، وأضرت بهم محلياً وعالمياً ، وجعلتهم يتسللون القروض والحسنات من الغرب الصليبي والشرق الملحد ، وغادرتهم مجرد صغار لا قيمة لهم ، وسلعاً للمساومة لا حول لها ولا قوة.

إن كل نظرية لا بد لها من ثمار ونتائج ، وإن هذه الثمار والنتائج تقوم بما تعطيه من خير لمصلحة أكبر عدد من المنتفعين بها ، وخير المعندين بها مباشرة وإن العصبية القومية التي مزقت البشرية ، وكنا نحن - المسلمين - أشد ضحاياها غباءً ، لما نملك من أسباب الهداية؛ لم تثمر لنا إلا مر الثمر ، ولم نجن من ورائنا إلا السراب! نعم ، استفاد منها قوم؛ استفاد منها الغرب وأعوانه ، واليهود وأشياعهم ، واستفاد منها من يتاجر بالآمنا وفرقتنا ، ويراهن على زوالنا واندثارنا.

ماذا ينتظر الذين جروا - ويجرون - وراء الغرب الذي طغى في البلاد ، فأكثر فيها الفساد ، ونشر فيها الأوبئة النفسية والجسدية؛ نشر الأفكار الهدامة كالقومية والمبادئ الباطلة كالشيوعية والوجودية ، وضمن حرية التحلل الخلقي وصدر الإيدز وسائر الأمراض "الإفرنجية" .. ماذا ينتظرون من نتائج لما صنعته أيديهم التي نفذت خطط "لورانس" ، والتي كانت تهدف - فيما تهدف إليه - إلى دق إسفين سميك عريض في علاقة العرب والترك ، والقضاء على رابطة الدين الإسلامي التي تجمعهم. لا شيء ينتظر إلا مزيداً من التمزق والحرروب والويلات التي تذهب هذه الشعوب الإسلامية وما تثمره وتملكه وقوفاً لها.

إن العصبية القومية تستمد غذاءها من الجانب المظلم من الإنسان ، يل من الجزء الحيواني فيه؛ من الأثرة ، والشح ، والحقد ، والكراهية ، والحسد ، ومن حب التسلط والتفاخر والتعالي على الآخرين بقهرهم.. ومن سائر الأهواء الشخصية والجماعية.. في حين أن الرابطة الإسلامية رابطة اختيارية متصلة إلى الحق ، وتستمد شرعيتها من وعي الإنسان بذاته ، ومن إدراكه لدوره الذي حده خالقه له ، هذا على المستوى الفردي ، أما على المستوى الجماعي؛ فإن الرابطة الإسلامية هي التي جعلت للعرب دوراً تاريخياً على الأرض ، وحملهم هذه الرسالة إلى العالمين هو الذي يحترمهم من أجله من يحترمهم من أهل الحق ، ويكرههم من أجله من يكرههم من أهل الباطل. وفضلهم يتجلّى في تضحياتهم وبلاءاتهم الأولى التي دخل بسببها من دخل في الإسلام من الشعوب الأخرى. ومن ينكر فضل العرب في ذلك فهو إما مكابر متعصب؛ أو جاهل يحتاج إلى نصح وتعليم.

على أن كل هذا لا يجوز أن يعطي العرب حق التسلط على غيرهم من الشعوب وهم ضحى بهم ، والنظر إليهم من فوق؛ بل ينبغي للعرب وغير العرب من المسلمين أن يقولوا: ((الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهادي لولا أن هدانا الله)).

إن ما بين العرب والترك من العلاقة والروابط الطيبة أكثر بكثير من الاختلافات التي ضخمها أعداؤهم ، ونجحوا في زرع العداوة بسببها بينهم. وإن علاج مشكلة المياه يكون بإبراز تلك العوائق والروابط والتذكرة بها ، فالعرب والترك مسلمون ، والعرب والترك كانوا أمة واحدة ، هدفها واحد ، وعدوها واحد ، وهم الآن مت加رون ، لا زال الهدف واحداً ، والمصير واحداً ، العدو هو هو. ولست أدرى ، بل ولست أعلم : كيف تجمع دول أوروبا على أمر تحريم علينا نحن المسلمين ، ولئن كانت هناك نقاط التقاء بين الطليان الكاثوليك والإنجليز البروتستانت وبين الألمان البروتستانت والإسبان الكاثوليك.. يجتمعون عليها ويستثمرونها في تقوية أنفسهم وفيما يعود بالفائدة على شعوبهم؛ أليس بين العراق والشام من روابط يبني عليها؟! أليس بيننا - نحن العرب - وبين الأتراك من العلاقة ما بين الأوروبيين؟! إيه والله بل أكثر !! لو أنصف المتنفذون من هؤلاء وهؤلاء.

بعد أن تفرق المسلمين إلى قوميات ، وانشعبت القوميات إلى وطنيات ، وأشرفت الوطنيات أن تتغير طائفيات؛ فإن هذا ليس بمقدح أعداءهم ، بل لن ينتنوا عن الانقضاض بكل الوسائل عليهم حتى يستحيل عليهم الخروج مما رموا به.

ومع هذا فإن أخطاء التاريخ قبلة للتصحيح إذا ما صحت العزائم وخلصت النوايا ، ورزقت الأمة برواد تلتف حولهم ، فيخرجون بها من الضيق إلى الرحابة ، ومن التبعية إلى امتلاك القرار. وإذا كان يصعب علينا أن نطالب بوحدة أقطار حوض الفرات - لأن هذا قد يكون غير واقعي ، وإغراقاً في الخيال ، وأحلام يقظة - فلا أقل أن تذكر أن بينها أرحاماً قطعت ولا يستحيل وصلها؛ وقدراً مشتركاً من العلاقات التاريخية ، وبعد كل ذلك وقبله؛ جواراً أبداً. وإن مما أمر الله به الإحسان إلى الجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب .

الجبهة الشعبية والعبث الأمريكي بالقضية الأرترية

بلال محمد

في الوقت الذي أعلنت فيه الشيوعية إفلاسها عالمياً بدأتقوى الصليبية بإعادة ترتيب أوراقها للوثوب على موقع التأثير ، وبالذات تلك التي كانت تأمل العثور على متৎ من خلال وجودها داخل القفص الماركسي الحديدي.

وحيث إن النظام الإثيوبي كان أحد الذين أتوا إلى الكهف الشيوعي منذ صعوده إلى سلم القيادة قرر أن يجعل من بلاده بؤرة المد الشيوعي وموطناً لنفوذها الأمر الذي مكنه من تلقي الدعم السوفيaticي بعناية فائقة للقضاء على من أسماه بالانفصاليين المتمردين في شمال البلاد.

وبعد أن كان الروس في سابق عهدهم ينتعون ارتباط أرتريا بإثيوبيا فدرالياً وأنه تم برضى أحد الطرفين ، دون الالتفات إلى رغبة الآخر ، غيروا من سياستهم وأبدوا صفحة الغدر فأدانوا حركة

التحرر الإرتيرية رغم تلويعها بالشعارات الماركسية ووصفتها "برافدا" عام ١٩٨٧ بالإمبريالية التي تهدف إلى إضعاف إثيوبيا وحرمانها من منافذ البحر الأحمر . وقالت : إنه في هذه الظروف تورط الانفصاليون الإرتريون في لعبة يلعبها الآخرون وإنهم يساهمون موضوعياً في تنفيذ المخططات الإمبريالية ..

إلا أن فشل نظام "الدراق" الإثيوبي في سحق المقاومة الإرتيرية بالسلاح الروسي أوصل السوفيات إلى قناعة تامة بأن الجسم العسكري غير ممكن لإحلال السلام ، وإن طريق السلام في إثيوبيا سيبقى مسدوداً ما لم يتم التفاوض مع القوى الإرتيرية ، وعليه أظهر الروس فتورهم وهبوط حماسهم ومارس جورباتشوف ضغوطاته على منجستو للتخلص عن عنجيتيه العسكرية والنزول إلى ساحة الواقع.

وفي ذات الوقت أخذ الجيش الإثيوبي يشهد موجات من التبرم من مواصلة الحرب في إرتريا ، وصار ينادي بالبحث عن بدائل أخرى لحل الأزمات الإرتيرية ، وتزايدت في وسطه حركات التذكر ، وخلايا المعارضة السرية حتى قام في عام ١٩٨٨ بمحاولة انقلاب فاشلة على منجستو .

وإثر هذه المحاولة لم يجد قائد الدرق بدأ من طرح القضية الإرتيرية على بساط منظمة الوحدة الإفريقية ولأول مرة في التاريخ بعد أن ظل مجرد الحديث حولها محظماً بوضعها تحت بند عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، طالب منجستو زعماء الكتلة الإفريقية مساعدته في حل القضية الشائكة ، التي استنزفت اقتصاده ، وبهذا تكون القضية الإرتيرية وضعت قدميها على منعطف جديد .

إلا أن الشيء الذي يستدعي وقفه تأمل هو عودة أمريكا ولمرة الثانية إلى العبث بالقضية الإرتيرية لصالح القوى الصليبية العالمية ، فقد أخذت أمريكا في الآونة الأخيرة تبدي اهتماماً بالغاً بالقضية حيث أجرت عدة اتصالات ببعض الرموز الإرتيرية عبر أحد رؤسائها السابقين "جيسي كارتر" ولأمر في نفسها أنطلت المهمة برجل كامب ديفيد الذي أسعد المنطقة بزياراته المتكررة ولقاءاته العديدة التينظمها مع العناصر الصليبية في كل من إرتريا ، والسودان ، وإثيوبيا . وهكذا ظهر كارتر فجأة ليكون وسيطاً بين نظام منجستو والجبهة الشعبية الإرتيرية وبالفعل تم عقد لقاء بينه وبين الأمين العام للجبهة الشعبية إيسيلس أفورقي في العاصمة السودانية الخرطوم بتاريخ ١٩ ، ٢٢ أبريل ١٩٨٩ وذلك عقب عودته من أديس أبابا عاصمة إثيوبيا .

وبهذه السرعة انقلب أمريكا رأساً على عقب من قمة جفائها وغلظة عدائها للشعب الإرتيري وبعد أن جعلت في أذنها وقرأ عن سماع مطالبه منذ اندلاع ثورته إلى وسيط يورقه مأساه ويسعده إسداء المعروف إليه .

كما أن الجبهة الشعبية الإرتيرية التي عودتنا التنديد بموافقات الولايات المتحدة وسائر القوى الإمبريالية من القضية الإرتيرية أصبح الوجه الأمريكي منذ حلول الثمانينات من أحب الوجوه إليها فأخذت تبني مواقف سياسية معاينة بنهجها الماركسي وهذا لا يعني إلا أن العناية الأمريكية وبعد دقة ودراسة متأنية طبعاً وقع اختيارها بالدرجة الأولى على الجبهة الشعبية الإرتيرية فمنحتها المباركة الرسمية لنلجم مؤسساتها السياسية ، ومن ثم سهل على قيادة الجبهة الشعبية التردد بين الحين والآخر على الولايات المتحدة للتعبير من خلال منابرها السياسية عن آراء تنظيمها وتوجهه الجديد .

وباتت اللقاءات التي تعقدتها قيادة التنظيم تحظى بقدر كبير من اهتمام المسؤولين الأمريكيين وتشهد حضورهم ومتابعتهم ، وفي ظل رعاية أعضاء من وزارتني الخارجية والدفاع بالإضافة إلى عدد من السفراء والصحفيين والكتاب وأعضاء المؤسسات الأمريكية الكبرى عقد الأمين العام إيسيلس أفورقي لقاء في ٣ مايو ١٩٨٩ بمركز الدراسات الإستراتيجية والدولية بواشنطن ، ومُكن في مدينة سان

فرنسيسكو من اللقاء بمنظمة "نادي كومنوثل" حيث خاطب ما يربو على مائتين وخمسين شخصاً بمقر النادي ونقل حديثه هذا عبر موجات الأثير إلى كل أنحاء مدينة سان فرنسيسكو وضواحيها وعكست صداؤه أكثر من مائتين وتسع وسبعين محطة إذاعية في الولايات المتحدة (١). وأخيراً كل هذا النشاط بقاء أتلانتا (٢) التمهيدي بولاية جورجيا بين وفد الجبهة الشعبية برئاسة الأمين محمد سعيد ، والوفد الإثيوبي برئاسة "أشاقري" والذي تمخض عنه لقاء نيرובי (٣) وهو اللقاء الذي تم فيه الاتفاق على اختيار نيرييري رئيس تنزانيا السابق نائباً للرئيس الأمريكي جيمي كارتر في الإشراف على سير المفاوضات.

ولكن السؤال الجدير بالطرح هنا : لماذا كانت الجبهة الشعبية هي الفصيل الذي وقع عليه اختيار الإدارة الأمريكية دون غيره؟

فيما أحسب ليس لدى كثير من الإرتريين والمهتمين بأوضاع الساحة الإرتيرية جواب أكثر من أن يقال : إن التقل العسكري الذي تمثله الجبهة الشعبية في الساحة الإرتيرية أهلها لأن تتبواً مكانها المناسب في قضية السلام الأمريكي ، وهذه الرؤية وإن كانت تمثل جزءاً من الحقيقة فإنها ليست كل الحقيقة ، وحتى هذه الجزئية منها ما كان لها أن تكون إلا بعد أن رأت القوى الصليبية العالمية أن تجعل من الجبهة الشعبية الفصيل الذي لا منافس له ، وذلك بالدعم الإعلامي والعسكري الذي أغرفت به ساحة التنظيم (٤) ، وحين انفرد لها بالساحة وخلا بها وحيداً أنته مهرولة تتکي عليه في تنفيذ مخططها الرامي إلى بسط الهيمنة الصليبية في البحر الأحمر ، فهي تدرك تماماً أهمية موقع إرتريا الذي يطل على قاعدة عريضة من البحر الأحمر ، ومن ثم رأت ضرورة إيجاد حليف لها يؤمن مصالحها ويتحرك وفق وحيها لا سيما وأن المنطقة تشهد تمدد إسلامياً ، وحيث إن الهيمنة الإسلامية على إرتريا تؤكد هوية البحر الأحمر وانتماءه الإسلامي فإن القوى الصليبية ممثلة في الولايات المتحدة وحلفائها لن تتتوانى في إقصائه عن السيطرة الإسلامية.

ولهذا كانت الجبهة الشعبية الإرتيرية هي اليد التي ارتكبت (السي آي إيه) مصافحتها والعمل على وضع القضية الإرتيرية بين فكيها ، فمنذ وقت مبكر كانت وكالة الاستخبارات الأمريكية قد زرعت رجالها في قلب الثورة الإرتيرية عبر قاعدتها "قانيو ستيشن" (٥) في أسمرا ، وظلت تتفقد النسبة بالسقاية والحماية حتى أينع ثمرها ، وحان وقت قطافها.

وهكذا انتقلت قضية شعب مسلم إلى إدارة صليبية تدرج بين أقدام الثالوث الصليبي إسياس أفورقي ، وكارتر ، ونيرييري الذي سجل أبغض تاريخ في التكيل بال المسلمين العرب في زنجبار. وكانت أمريكا على يقين من الوصول إلى هذه النتيجة وجنى هذه الثمار من خلال مراقبتها للصراعات الدائرة في القرن الأفريقي ، مما انزعجت أصلاً من التدخل الروسي في القرن الأفريقي لأنها أيقنت بأن الاتحاد السوفيتي سوف يجد نفسه غارقاً في مشاكل لا طاقة له بها وأنه سيفشل وسيفقد موقعه في إثيوبيا كما فقده من قبل في مصر والسودان والصومال.

ومن هنا ظلت الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس كارتر تحافظ على علاقتها بإثيوبيا وتمد نظام "الدرق" بمساعدات عسكرية حتى عام ١٩٧٧ وحتى إلى ما بعد ٧٧ بقيت العلاقات الاقتصادية بين إثيوبيا والولايات المتحدة قائمة.

وكان من حرص الإدارة الأمريكية على مصالحها في المنطقة ، أن أنسنت إلى كارتر مسؤولية تأكيد السيطرة الصليبية على البحر الأحمر ، ومن هنا رغم إدراكها بقصور الجبهة الشعبية وعجزها عن تمثيل الشعب الإرتري كله لما تعانبه من عزلة جماهيرية وقع اختيارها عليها ، ومحال أن يكون هذا الاختيار وليد الصدفة ومحض العفوية بل كان لأمر قد قدر في دهاليز الاستخبارات الأمريكية ،

وسوف تنجاب عنا كل غشاوة من شأنها أن تحول دون هذه الرؤية الصحيحة السليمة إذا ما استحضرنا بيان الخارجية الأمريكية الذي صدر في ١١ حزيران يونيو ١٩٧٧ والذى قال فيه كارتر نفسه : "إني ميال إلى أن أتحدى بقوة وبطريقة سلمية الاتحاد السوفياتي وأخرين من أجل النفوذ في مناطق العالم التي نشعر أنها أساسية بالنسبة لنا الآن أو أنها قد تصبح كذلك خلال خمسة عشر سنة أو عشرين سنة من الآن".

إن هذا التحدي كفيل بأن يفسر لنا الغاية التي يهدف إليها تحرك كارتر وإنه ليس قائماً في وجه السوفيات فحسب ، وإنما يتخطاهم إلى غيرهم. ومن ثم إن عبارة "وآخرين" هي جماع كل قوة تسول لها نفسها مزاحمة الأمريكية في مناطق النفوذ التي قد تصبح ولو بعد عشرين سنة هامة بالنسبة للأمريكان.

واقتضت الخطة الأمريكية حالياً قص أجنحة التنظيمات الأخرى وتقليل أظافرها فأغرت حليفها بتصفية كل القوى الإرتيرية المنافسة والتي تحاول الاقتراب من الساحة فكان لها ما رأت وأرادت (٦) ...

بقي أن ندرك حقيقة أخرى من وهي : إذا كانت الجبهة الشعبية هي الفصيل الجدير باقتداء أثر كارتر والسير على خطاه ، فإن التنظيمات الأخرى جديرة أيضاً بأن تلعب الولايات المتحدة الآن على حالها حسب الحاجة ، كما أن إثيوبيا ذاتها رسم لها أن تستغل نفور الشعب ومعارضته للجبهة الشعبية بإيجاد شرائح من صنائعها فاستطاعت أن توجد عدداً من رجال الطرف واللهم وطائش الرأي أطلقت عليهم ممثلي المنخفضات (٧) واستدعت نفراً إلى كينيا لتراهن بهم على أطروحتها وتوقع الجبهة الشعبية في مأزق حرج.

وأياً كانت الأسباب التي دفعت هذه العناصر إلى الارتماء في أحضان المخابرات الإثيوبية فإن الأطروحتات التي يتبنونها لا تمثل إلا سطراً على حقائق التاريخ ، فما كانت إرتريا يوماً من الأيام جزءاً لا يتجزأ من إثيوبيا ، ولم تكن الثورة الإرتيرية ولidea اضطهاد وقع وزال كما يحلو لهؤلاء الاستسلاميين أن يرموا.

إن بروز هذه الفئة تزامن مع ظهور حركة الجهاد الإسلامي الإرتيرية وهذا يوحى إلى أنه يمكن أن يستخدموا كأدلة للشعب تکفه عن الالتحاق بالحركة ، وذلك أن غياب الفكر الإسلامي عن الثورة الإرتيرية في فجر نشوئها إذا كان من أهم العوامل الأساسية في تحويل مسارها والتلاعيب بها تارة من قوى اليسار ، وأخرى من قوى اليمين فإن وجوده الآن ممثلاً في حركة الجهاد الإسلامي الإرتيرية يجعل من الصعبوبة بمكان استقطاب العنصر المسلم التائز الواعي لإسلامه والتلاعيب بعواطفه. ولا يتأنى هذا في نظرهم إلا حين توضع أمامه هذه الدمى المعممة والتي تحرك وفق الإرادة الإثيوبية وخلفائها اليهود.

والخلاصة إن منطقة القرن الأفريقي مقبلة على أمر يتعارض مع هويتها الإسلامية ، وإن عودة الولايات المتحدة إلى القضية الإرتيرية لا يرمي إلا إلى تطوير الصحوة الإسلامية وإخماد جذورها المتقدة - لا قدر الله - عبر تمكين عناصر صلبيبة إرتيرية من التحكم بزمام القضية ، وكذلك العمل على امتصاص الشعور الإسلامي المتنامي في أوساط الارتربيين بدفع بقية التنظيمات العلمانية التي يتربى على عرشها أناس لا يحملون من الإسلام إلا اسمه إلى مائدة التفاوض مع إثيوبيا .

الهوامش :

١ - انظر مجلة ساقم لسان حال الجبهة الشعبية عدد ٢٣ ، يونيو ١٩٨٩ م.

- ٢ - بتاريخ ١٩٨٩/٧/٦ م.
- ٣ - عقد لقاء نيرובי في ٢٠ نوفمبر ١٩٨٩ م ، وستعقبه جلسات في كل من الخرطوم والقاهرة وتنزانيا وهراري بزمبابوي.
- ٤ - تم ذلك عن طريق ما يعرف بالجمعيات الإنسانية وهيئات الإغاثة الأوروبية ورجال الصحافة الغربية.
- ٥ - يقال إن إسپاس ذاته كان على اتصال بالقاعدة الأمريكية بأسمرا عن طريق تسايا وهينس برهى أحد علماء نظام هيلا سلاسي وحلفائه.
- ٦ - وقفت حركة الجهاد الإسلامي وحدها بصلابة في وجه سياسة التصفية وعزرت وجودها في الساحة - والله الحمد - بينما لاذ غيرها بالفرار.
- ٧ - يقول كاسا كيبيدا عن هؤلاء : "إن هؤلاء يطالبون بالحكم الذاتي الخاص والمساواة الكاملة في الحقوق الدينية والقومية وقد اتفقنا مع هذه الفتنة واستجبنا لمطالبهما" انظر المصدر السابق.

قتل الشيخ عبد الله عزام... خطوة نحو أفقنة الجهاد الأفغاني

أحمد زيدان

فقد الجهاد الأفغاني يوم ١٩٨٩/١١/٢٤ أحد أشد مناصريه المسلمين وهو الشيخ الدكتور عبد الله عزام الذي لقي ربه إثر انفجار لغم في مدينة بيشاور الباكستانية وهو متوجه مع اثنين من أولاده إلى مسجد (سبع الليل) الذي اعتاد الشيخ رحمه الله أن يصلى فيه، وعند تقاطع الشارع الرئيسي مع الزقاق المتوجه إلى المسجد انفجرت عبوة ناسفة قدرها خبراء المتفجرات بـ ٢٠ كلغ من مادة الـ ت. ن. ت شديدة الانفجار ، الأمر الذي أدى لانشطار السيارة ثلاثة أقسام.

الشيخ عبد الله عزام أمير مكتب خدمات المجاهدين الذي يعتبر أكبر وكالة إسلامية تدعم المجاهدين والمهاجرين الأفغان أسس خمسة مستشفيات في داخل أفغانستان وعددًا من المستشفيات في باكستان لخدمة المهاجرين والمحرومين الذين أخلوا من الجبهات إلى باكستان ، كما أقام عدداً من المدارس داخل أفغانستان وفي باكستان للمهاجرين.

الجهات المتورطة بالاغتيال :

لا شك أن هناك مؤامرة عالمية حاك خيوطها أطراف وجهات متعددة للقضاء على أحد رموز هذا الجهاد. والذي أعتقده في هذا الحدث بأن هناك مخططين وهناك منفذين ، ويمكن أن نعد من الجهات المتورطة أو المستفيدة من الحدث :

- ١ - القوى الكبرى (أمريكا ، وروسيا).
- ٢ - نظام كابل وشيوغو باكستان.
- ٣ - دولة باكستان.
- ٤ - الشيعة.

سنحاول في هذا المقال أن نذكر الأدلة والقرائن على كل طرف من هذه الأطراف.

١ - القوى الكبرى (روسيا - أمريكا) :

يقول المتابعون للأحداث هذا الجهد بأن سياسة الانفراج الدولي التي يتجه إليها العملان تنافي السماح لأي تجمع إسلامي بالجهاد والإعداد له ، ولا شك أن الشباب العربي الذين تجمعوا حول الجهاد الأفغاني ليس شيئاً قليلاً ، ونحن هنا لا نكشف سرّاً مما يقلق هذه الدول ويهدد مصالحها في مناطق نفوذها من العالم.

ومن العجيب أن تشهد باكستان زيارة نائب رئيس الاستخبارات الأمريكية قبل أيام من عملية الاغتيال حيث إن مثل هذه الشخصيات قلما تزور باكستان وكان آخر زيارة لمسؤول استخباراتي أمريكي هو (وليم كاسي) رئيس الاستخبارات الأمريكية أيام الرئيس ضياء الحق.

وقد حرص القنصل الأمريكي في بيشاور قبل شهر من الاغتيال الالتقاء بالشيخ عبد الله رحمة الله إلا أن الأخير رفض اللقاء.

كما يدرك ويعرف من له أدنى اهتمام بالقضية الأفغانية أن الشباب العرب في ساحة الجهاد وعلى رأسهم الشيخ عبد الله عزام يعتبرون عقبة كبيرة في وجه الحلول التصفوية والسلمية المجففة بحق المجاهدين الأفغان ، إضافة إلى أن الشيخ عبد الله لعب دوراً محورياً في التوفيق بين قادة الجهاد الأفغاني ، أو على الأقل تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتعارضة ، يقول الأستاذ برهان الدين رباني : "وقد قضى الشيخ عبد الله ليلة الجمعة أي ليلة الاغتيال كل يومه في محاولة الاصلاح بيني وبين حكمتيار حتى طرق على الباب في الساعة الثانية عشرة ليلاً يطالبني بالتوقيع على وثيقة الصلح ووقعت وقال لي: إن موعدنا في إسلام آباد غداً" وكان الشيخ عبد الله رحمة الله سيغادر بيشاور إلى إسلام آباد بعد أدائه صلاة الجمعة في مسجد العرب.

٢- نظام كابل وشيوعيو باكستان :

يسبعد المهتمون بالأحداث مقدرة نظام كابل على تنفيذ مثل هذه المحاولة حيث إنه مشغول في كابل ، ولا يستطيع تنفيذ مثل هذه المحاولة في وضح النهار في شارع مزدحم من بيشاور ، خاصة وأن ترتيبات العملية تحتاج لأربعة أيام على الأقل.

وقد علق حكمتيار أمير الحزب الإسلامي على تورط نظام كابل بالعملية : " لا يمكن لهذا النظام الذي يعني الأمرّين في داخل كابل أن يقدر على تنفيذ مثل هذا المخطط" ويستبعد أيضاً أن يقدر الشيوعيون في باكستان تنفيذ مثل هذا المخطط ، إذ أنهم لم يسبق لهم أن فجروا أو قتلوا أو اغتالوا في مثل هذا المكان المكشوف أمام الجميع. وأما المجاهدون الأفغان فيستبعدون تورط الشيوعيين في ذلك ويرجحون جهات أخرى سيأتي الحديث عنها.

٣ - باكستان :

يتقد الأغلبية إن لم نقل الجميع على تورط باكستان في العملية إذ أنه لا يعقل أن يعمل هذه العملية أشخاص وتستغرق منهم أربعة أيام كترتيب لاغتيال وفي شارع مزدحم دون معرفة واطلاع المخبرات الباكستانية أو البوليس الباكستاني ، الذي اعتاد أن يجوب الشارع في كل اليوم. حتى أنهم بدعوا يضعون جنود على فتحة الزقاق المتوجه للمسجد بعد المحاولة الأولى وهي زرع متفجرة تزن ٢ كغ تحت منبر الشيخ عبد الله وكانت مؤقتة أن تتفجر أثناء خطبة الشيخ ولكن الله سلم حيث إنها ستنقلب وتحرّك كثيراً من المصلين العرب الذي اعتادوا أن يؤمّوا المسجد.

الشيخ قاضي حسين أحمد زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان اتهم الحكومة بالتورط في الاغتيال وهدد إذا لم تكشف الحكومة عن الجهة المنفذة فتقوم الجماعة الإسلامية بتسيير المظاهرات ، ولكن لم يحصل شيء من هذا حتى الآن.

٤- الشيعة:

الأكثرية من المراقبين يشieren إلى تورط الشيعة في الاغتيال ، ففي يوم محاولة اغتيال الشيخ الأولى في مسجد سبع الليل قام الشيعة في بيشاور بتوزيع بيانات وباللغة العربية الركيكة عن الوهابية وشتمها وأن هؤلاء العرب الذين قدموا لمساندة الجهاد الأفغاني وهابيون.

أحد الشباب قال لي بأنه التقى مع الشيخ عبد الله رحمة الله قبل اغتياله بأيام ونصحه باتخاذ احتياطات أمنية ، فرد عليه الشيخ بأنه يتوقع أن يقوم الشيعة بمثل هذه المحاولات.

ومنذ أربع سنين حدثني أحد الشباب العرب المساندين للجهاد الأفغاني بأنه اعتقل في إيران لعلاقته مع الأحزاب السنوية هناك ودمعه لها فالتقى به رفسنجاني رئيس الدولة حالياً وطلب منه إملاء وتعينة ملف كامل عن نشاطات الشيخ عبد الله عزام ودوره في الجهاد الأفغاني ، لكن الأخ رفض وبقي في السجن فترة طويلة إلى أن تدخل بعض قادة الجهاد وأفرجوا عنه.

الأستاذ نور الله عmad نائب أمير الجمعية الإسلامية قال في حفل تأبيني للشيخ بأنه عندما كان في رحلة إلى دولة حدودية ليحضر مؤتمراً دولياً عن القضية الأفغانية ، كان المسؤولون هناك مهتمين جداً بمعرفة أدق التفاصيل عن الشيخ ويسألون عنه وعن نشاطاته فأدركت منذ ذلك الوقت بالمؤامرة ، واتصلت بالإخوة في باكستان ليذروا الشيخ من ذلك ، وينصحوه بأن يأخذ احتياطاته.

أحد مسئولي (الحزب الإسلامي - حكمتيا) ذكر من جملة الأطراف المتورطة في اغتيال الشيخ الشيعة ودلل على ذلك بقوله : "إن الشيخ عبد الله في نشاطاته داخل أفغانستان ودعمه لجمعيات السنة أحبط محاولات الشيعة في استغلال الوضع ورأوه عقبة كئود في تمرين مخططاتهم.

الاغتيال حلقة في التخلص من مؤيدي الجهاد:

الجميع يتყى على أن الاغتيال ما هو إلا حلقة متصلة في القضاء على مناصري هذا الجهاد من العالم الإسلامي ، وقد بدأ المخطط منذ حادثة طائرة ضياء الحق.

وقد لاحظنا في السنوات الأخيرة استهدف زعماء أهل السنة ، وتحولت آلة الاغتيال من تصفيية القادة السياسيين إلى القضاء على علماء أهل السنة فهل يفكر المعنيون بحماية لهم أو ترتيب إجراءات أمنية لهم.

ولا شك أن مستقبل الوجود العربي في القضية الأفغانية يكتنفه الكثير من الغموض حيث أشار الأستاذ سيف إلى توقع سلسلة انفجارات واغتيالات للشباب العربي لإجبارهم على الرحيل.

المهندس حكمتيا طالب العرب بالبقاء ولا يتركوا الأفغان في منتصف الطريق. أما البروفيسور ربانى فذهب بعيداً إلى دروس التاريخ خاصة في حوادث المسلمين في آسيا الوسطى عندما حولوها قومية وحصروها وعندما صفي المسلمين هناك لم يأبه لهم أحد أو يكرث بهم ، وكذلك فقد تعرضت القضية الفلسطينية لأعظم خطر عندما تحولت من إسلامية إلى قومية ، وهانحن أيها الإخوة (ي خطب العرب الحضور) في هذه اللحظات الحاسمة نقول لكم إن أرضنا أرضكم وأخوتنا ما تزال وستستمر إن شاء الله ونحن كما قال تعالى: ((إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مُّتَكَبِّرَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونَ)).

تفریغ الساحة من العرب لمصلحة من؟

الخيوط جميعها تشير إلى أن أطرافاً متعددة تتوى تفريغ الساحة من العرب ونشير هنا إلى عدة أمور سترافق هذا التفريغ لو حدث - لا سمح الله -

- ١ - استفراد المنظمات الصليبية الطوعية والحكومية بإعمار أفغانستان والتعامل مع المجاهدين الأفغان وبالتالي لا يستبعد أن يرضاخ المجاهدون لبعض سياسات هذه المنظمات ، حيث إن المنظمات الإسلامية تلعب دوراً رائداً في الحفاظ على إسلامية الأفغان بل والترقي بها ورفع مستواهم. وإن حدث هذا - لا سمح الله - فسيواجه الأفغان أنفسهم وحدهم بالساحة ، ويشعرون بأن إخوانهم المسلمين تركوهم في منتصف الطريق ولا يستبعد قبولهم بالحلول الجزئية والترقيعية ، إضافة إلى أن الصليبيين سيكون لهم موطن قدم في هذه الديار ، وكذلك فإن بعض الشباب العربي المضطهد في بلاده وجد باكستان ملذاً وملجاً له. وبهذا يبقون الشباب في حالة من التهجير والشتات.
- ٢ - إن تفريغ الساحة من العرب سيعمل على إضعاف هذا الجهاد ، حيث إن الشباب العرب كان لهم دور فعال في هذا الجهاد وما فتئت إذاعة كابل تشير إلى خطر تواجد العرب في أفغانستان ، وهذا يدركه كل من عايش القضية الأفغانية ، وبالتالي سيشعر الشعب الأفغاني بأنه وحيد في الساحة.
- ٣ - لقد خشي أعداء هذا الجهاد من وحدة المسلمين التي تجسدت في هذا الجهاد واحتللت الدم العربي والأفغاني ، وشارك المسلمون من شتى الجنسيات في هذا الجهاد ، وهذا يعطّل أكبر برنامج ومخطط تسير عليه الدول الكبرى في وحدة الأمة الإسلامية ، ولا يرود لها أن ترى المسلمين أمة واحدة ، وقد أشار إلى هذا المفهوم المهندس حكمتياز - حفظه الله.

وأخيراً :

فهذه هي نتيجة من يسير على هذا الدرب ، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمد الشيخ عبد الله عزام بواسع رحمته وأن ينزله منازل الشهداء والصالحين ، كما نسأله ألا يحرمنا أجره وألا يفتنا بعده وأن يغفر لنا وله ويصبر أهله وذويه وأصدقاءه وأتباعه إنه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين.

واقع المسلمين في بريطانيا

هذا هو تتمة المقال المترجم الذي بدأناه في العدد السابق عن المسلمين في أوروبا ، ويتحدث كاتبه هنا عن المسلمين في بريطانيا، نقله دون تعليق لأن فيه الكثير من الواقع والإنصاف.

قسم الترجمة

منذ أن قام متظاهرون ساخطون بإحراق نسخة من كتاب سلمان رشدي في مدينة برادفورد في شمال إنكلترا وسلمو ببريطانيا يتعرضون لمراقبة وفحص دقيق لا نهاية لها من قبل أجهزة الإعلام. لقد فجرت قضية رشدي حرباً كلامية مرة بين الذين يسعون إلى منع الكتاب ومحاكمة مؤلفه بتهمة الإساءة للإسلام؛ وبين أنصار حرية التعبير ، لقد توعد المسلمون كلاً من رشدي وشركة (بنغوين) التي قامت بنشر كتابه بالانتقام بأساليب مختلفة مما أدى إلى إحداث عاصفة من ردود فعل غاضبة ، فقد دعا جمع من الكتاب والمعلقين الشرطة إلى محكمة أولئك المسؤولين عن التحرير على قتل رشدي ، كما حذر آخرون من خطورة بروز تيار أصولي إسلامي في بريطانيا.

ومن الجدير باللحظة أن هذا الجدل الحاد حول حرية التعبير ونشوء الأصولية قد غطى حقيقة أخرى تدعى للقلق وهي تتصدع العلاقة المتزايد بين البريطانيين البيض وبين مسلمي بريطانيا الذين يقدر عددهم بـ (١٤) مليون ذوي الأصول الآسيوية ، ومما يلاحظ أن المسلمين الذين ظاهروا في كل من برادفورد ولندن كانوا يحملون لافتات متطابقة تقول : الجحيم لحزب المحافظين ، الجحيم

لحزب العمال ، وفي الحقيقة فإن كثيراً من المسلمين يشعرون بأنه ليس هناك حزب سياسي في بريطانيا يتبنى قضاياهم.

إن غضب مسلمي بريطانيا الذي أوجته مؤخراً قضية كتاب رشدي له جذوره التي ترجع إلى أعوام الطفرة الاقتصادية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، في عقدي الخمسينيات والستينيات ، فطبقاً للإحصائيات البريطانية فإن ما يقرب من (٦٢٩) ألف مهاجر من الهند ، وباكستان وبنغلاديش قدموا إلى بريطانيا خلال هذين العقود للعمل في مصانع الفولاذ والنسيج والملابس البريطانية مقابل أجور لا يقبل بها العمال الإنكليز عادة.

وكما هو حال كثير من المهاجرين في أنحاء العالم ، فإن خطة مهاجري بريطانيا كانت العمل وادخار ما أمكن من المال ثم العودة إلى البلاد ، إلا أنهم سرعان ما اكتشفوا أن المعيشة في بريطانيا باهظة التكاليف ، وأن الحصول على مسكن أمر صعب ، وأن موجة التمييز العنصري المناهضة لآسيويين واسعة الانتشار ، وكان هؤلاء المهاجرون يرسلون ما يفيض عن حاجتهم من أموال إلى عوائلهم في بلادهم إلا أنه بدا للكثير منهم عدم العودة إلى أوطنهم ، لذلك قرروا استقدام عائلاتهم إلى بريطانيا منفقين على ذلك أموالهم المدخرة ، ولم تكن مؤسسات الضمان الاجتماعي في بريطانيا قادرة - أو في تعبير أصح راغبة - في التعاون مع الوافدين الجدد.

وفي البيئة الجديدة شرع الأطفال الآسيويون الذين لا يتكلمون الإنكليزية البتة بالذهب إلى المدارس في المدن المختلفة ليتعاملون مع من لا يعرف شيئاً عن لغتهم أو ثقافتهم ، ويرفض الأطفال الذين ترعرعوا في محبيط إسلامي تناول الوجبات الغذائية المقدمة من قبل إدارة المدرسة خوفاً من احتوائها على ما قد يحرمه الإسلام ، كما أن بعضًا منهم كان عرضة للسخرية والإهانة والتعالي عليه من قبل الطلاب البيض.

وعندما رد أهالي الأطفال على هذه السلوكيات بإبقاء أطفالهم في البيوت بعيداً عن المدرسة، هددت السلطات المحلية بمحاكمتهم.. ففي مدينة برادفورد مثلاً ، والتي تضم أعلى نسبة من السكان الآسيويين في بريطانيا، أمضى المسلمون خمسة عشر عاماً من المحاولات المستمرة قبل أن يتمكنوا من الحصول على موافقة يزود بموجبها أطفالهم بوجبات غذائية تتفق مع تعليم دينهم. لقد مرت الجهود التي بذلها المسلمون لإرساء كيانهم في أجواء قاسية من التمييز العنصري. ففي نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينيات وهي الفترة التي بدأت فيها المتابعة تواجه مصانع النسيج ، ارتفعت معدلات البطالة وارتفعت معها موجات الاستياء ، وارتفعت في تلك السنوات وبشكل منتظم حوادث الاعتداء العنصري ضد المسلمين. وفي تقرير لوزارة الداخلية صدر عام ١٩٨١ م تبين أن الآسيويين أكثر عرضة للاعتداءات العنصرية بنسبة ٥٠ % .

لقد جاهر مسؤولون في الحكومة البريطانية بالشكوى من حوادث الاعتداء العنصري ، فقد عبر تقرير وزارة الداخلية لعام ١٩٨٩ عن الفلق حيال ما سيتحمله المجتمع من ثمن باهظ على المدى الطويل إذا ما سمح لتيار النزعـة العنصرية الخفي بالتشجيع والانفلات ، وعلى الرغم من هذه الاحتجاجات فإن عدداً من أعضاء حزب المعارضة يزعمون أن حكومة المحافظين مصدر للتمييز العنصري المنظم وليس علاجاً له.

وبغض النظر عن هو المسؤول، فإن إحدى آثار التمييز العنصري على المدى الطويل قد تكون نمو الروح النضالية لدى مسلمي بريطانيا، فهي موسم الصيف الماضي اتخذت المظاهرات التينظمها المسلمون في مدينة برادفورد طابعاً عنصرياً مقلقاً، حيث أخذت مجموعات من الشباب

الآسيويين بتحطيم الواجهات الزجاجية للمحال التجارية والسيارات وهددوا المارة. ومنذ ذلك الوقت والاشتباكات المتفرقة في الشوارع آخذة في الحدوث في بعض المدن.

ويعلق رئيس مجلس المساجد في مدينة برادفورد على هذه الأحداث في مقابلة أجريت معه مؤخراً فيقول : "إن هذا ليس من الأصولية في شيء ، إن الكثير من أولادنا هم موايد هذه البلاد ، وهم بذلك من حملة الجواز البريطاني إلا أنه ليس في استطاعتهم الحصول على عمل ، كما أنهم لا يلقون معاملة منصفة".

إن المسلمين البريطانيين يعانون من إحباط على نطاق واسع ، وإن هذا الشعور بالإحباط له أسبابه القوية. تشير حسابات دائرة التوظيف إلى أن نسبة العاطلين عن العمل بين الشباب (٢٤-١٦ سنة) المنحدرين من أصل باكستاني وبنغالي تصل إلى ٣٧٪ ، وهي تعتبر أعلى نسبة بالمقارنة مع أي طائفة عرقية أخرى في بريطانيا.

ويقوم المسلمون في بريطانيا بحملة تهدف إلى إقناع الحكومة بسن قوانين هجرة أكثر إنصافاً ، وإلى توفير فرص عمل متكافئة ، كما يطالبون بتخصيص حصص دينية إسلامية خاصة في المدارس ، وإلى الاعتراف بقوانين الشريعة الإسلامية في الزواج والميراث وإلحاقها بقانون الدولة ، وفي الحقيقة لقد بذل المسلمون في هذا المضمار جهوداً كبيرة لعدة سنوات، إلا أن الحكومة لم تلق لهم بالأ ، حتى جاء رد الجالية المسلمة على كتاب رشدي عنيفاً جداً، وقد تكون هذه المسألة على ما تثيره من قلق، حافزاً لتحول اجتماعي أكثر عمقاً، يكون الإسلام هو نقطة ارتكازه..

يقول الدكتور (شابرير أختر) وهو من المتخصصين في حقل تاريخ الأديان ، وكان قد حاز على تجربة في هذا المضمار من جامعة ألبيرتا في كندا ويقيم حالياً في برادفورد: "إن جوهر القضية هو أن الشباب الآسيويين وجدوا فجأة من يقتدون به في صفوف المسلمين الملتزمين ، فيما مضى كان الاجتماعيون العلمانيون وزعماء التحرر هم الذين يتكلمون باسم الجالية الباكستانية ، أما الآن فإن ذلك قد تغير كلية ، فدعاة التحرر يريدون أن يجعلوا من قضية العرق وقضية المرأة والرجل عناصر بديلة عن الدين - في عملية سن القوانين".

لقد افتقد مسلمو بريطانيا في الماضي أي شكل من أشكال المنظمات الوطنية أو الدينية، كالكنيسة الأنجلיקانية أو الكاثوليكية، أو العقيدة اليهودية، أما الآن فإن المجالس الإسلامية آخذة بالتكوين على الصعيدين الإقليمي والوطني ، وهذه المجالس هي المسؤولة عن تنظيم المظاهرات الكبرى التي تطوف شوارع المدن البريطانية ، كما أصبح عدد من قادة المسلمين يتمتعون بمكانة على الصعيد الوطني ، ولربما تحولت جهود هؤلاء القادة فجأة إلى حركة واسعة النطاق.

مجلة الجمعية الجغرافية البريطانية ، كانون أول / ١٩٨٩ م

خبر... وتعليق

١ - بمناسبة خروج الزعيم الأفريقي (نلسون مانديلا) من سجنه في دولة جنوب أفريقيا. سألت صحيفة (الشرق الأوسط) الكاتب فهمي هويدى عن رأيه فقال : "المسلمون هم أولى الناس فرحة بإطلاق سراح مناضل أفريقي كبير مثل مانديلا ، وبكل خطوة تتخذ على صعيد تحقيق المساواة بين بني الإنسان".

تعليق :

لا شك أن المسلم يكره التمييز العنصري، ويحارب ما تمارسه دولة جنوب أفريقيا وأمثالها ويفرح لأي انتصار للحرية على الظلم ، ولكن السؤال الموجه إلى الأستاذ هويدى : لماذا لم نر لك فرحاً بمجاهدة الأفغان للطغیان الشیویعی ، ولماذا لا تكتب عن المجاهد عبد الله عزام أو الأبطال الذين جاهدوا الظلم والطغیان ولا يزال كثیر منهم في السجون حتى الآن؟!.

٢ - تدفق اليهود السوفییت على إسرائیل وباتفاق ومبرکة من روسیا وأمریکا ، وشعرت إسرائیل بالقوة وأنها بحاجة إلى الأرض لتوطین هذا العدد الكبير من اليهود. وكان رد فعل الجانب العربي هو (تصاعد الانتقادات والاحتجاجات)!!!.

وعقد ياسر عرفات اجتماعاً مع نائب وزير خارجية روسیا و (أبدى الجانب السوفییت تفهمه) وفي نيويورك قال مندوب الجامعة العربية: إن الدول العربية تنظر بقلق شديد إلى موضوع الهجرة ، وأن العرب في الأمم المتحدة سيشكّلون لجنة لمواجهة هذا الأمر !!

تعليق :

رجعت حليمة لعادتها القديمة، ورجعت مهازل الاحتجاجات والشكوى وتشكيل اللجان، ورجعت الكلمات السمجة المزرية (ننظر بقلق). ومن يهمن يسهل الهوان عليه.

واحة البيان

مرض الروح

قيل للشعبي : تمراض الروح؟ قال : نعم من ظل الثقلاء ، قال بعض أصحابه: فمررت به يوماً بين ثقلين ، فقلت كيف الروح؟ قال : في النزع.
وقيل للأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء.

العمل

اغلب عدوک بالعمل
لا بالكلام المرتجل
فالفعل يبني أمة
أما الكلام فيبتذل

محمد الأزهري

تغذية

أكدت دراسة طبية أمريكية أن استهلاك زيت الزيتون الذي يعتبر من أساسيات التغذية في حوض البحر المتوسط يخفض من نسبة الكوليسترول والسكر في الدم.

حكم وطرائف

- ما دام الإنسان يجلس فلا يعرف إن كان أعرج أم لا.
- ما دام الإنسان ينام فلا يعرف إن كان أعور أم لا.
- ما دام الإنسان يصمت فلا يعرف إن كان كاذباً أو صادقاً.

قرأت أخيراً

- مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا.
- العثمانيون في التاريخ والحضارة للدكتور محمد حرب.
- برنامج عملى للمتفقهين للدكتور عبد العزيز القارئ.
- حوار هادئ مع الشيخ الغزالى.

الصفحة الأخيرة ظلم ذوي القربي

عبد القادر حامد

أحد القراء من اليونان أرسل إلينا يشكو من محاربة بعض الإخوة المسلمين لمجلتنا (البيان) ويستغرب ذلك ويظهر ألمه وأسفه ، وجواباً على ذلك نقول للأخ الكريم : الاستغراب معقول ومفهوم، ولكن الألم والأسف لا ينبغي أن يتطرق إلى النفس من هذا العمل. فنحن نعلم أنه منذ ظهور العدد الأول من مجلة "البيان" لم يرق ذلك لبعض الذين يدعون تمثيل العمل الإسلامي ، وأنهم ناصبوها العداء ، وتجنبوها بالتجاهل والتحذير الهامس، ولم يسمحوا لها أن تعرض في واجهات مكتباتهم ونواديهم، مع أن هذه الواجهات لا تخلو من عرض الصحف والمجلات التي لا نقول إنها لا تمثل الفكر الإسلامي ، بل إن منها ما تخصص في تنقص المسلمين وحرب قضياتهم ، وتكبير خلافاتهم ، والتحامل عليهم. وإن الإنسان ليدركه العجب ، وتعروه الدهشة من كيل المدائح التي تکال لكثير من أعداء الإسلام المكشوفين من قبل أنسا يتوافقوا فيما بينهم من التحذير من مجلة البيان ومقاطعتها.

ولكن كل ذلك لا يجوز بحال أن يثنينا عن مهمتنا التي نصيّنا أنفسنا من أجلها ، فإن الحق أبلج ، و (الشمس لا تغطى بغربال) ، وإننا نضع مثل هذه الأساليب في حرب منبر من منابر الدعوة في نصابه الصحيح ، فلا نقول مثلاً إن هذا تأمر من أعداء الإسلام علينا ، ولا أن الذين يحاربوننا بمقاطعة مجلتنا مندسون لتخريب العمل الإسلامي ، بل نقول: إن الذي يدفع إلى هذه الأعمال ضيق في الأفق ، وعصبية حزبية ، وحسد مبعثه الكبر وغمط الناس من قبل إخوة كان من المتوقع أن يكونوا عوناً على كل كلمة صادقة وجهد جاد.

هذا مع أننا لا نستكف عن عرض أي مطبوعة إسلامية تتبنى قضايا الإسلام والمسلمين ضمن إطار أهل السنة والجماعة ، وليس عندنا عقد تجاه أي مجلة صدرت أو ستصدر ، وحالنا مع هؤلاء كقول الشاعر:

وإن الذي بيّني وبينبني أبي وبينبني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنى لهم مجدًا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس كبير القوم من يحمل الحقداً

تمت بعون الله ، والله الحمد